الوجوه
• قصص •
عماد الغزالى
المجلس الأعلى للثقافة
١٩٩٨

الوجوه

اللوحات للفنان :

جورج البهجوري

المجلس الأعلى للثقافة

الوجوه

• قصص •

عماد الغزالى



١٩٩٨

إشراف فنى : **محمود القاضى**

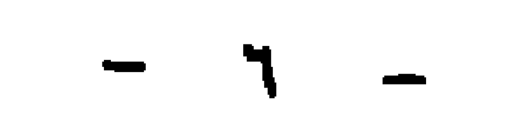
إلى روح أبى الغالى، الذى أخذتنى الغربة منه شهوراً..

وحرمنى الموت منه إلى الأبد..

إلى حنان أمى..

إلى زوجتى الحبيبة رباب..

وزهرتى الصغيرة.. هنــد ..



غاب القمر



كنت اقلب الشمس على وجوهها الأربعة فلا يداهمنى برتقالها ، فعزمت أن اصاحب القمر فله وجه واحد لا يتلون . .

وفى المساء جلست فوق سطح بيتنا المعرش بالقش والحطب وسعف النخيل وخشب شجر الكافور الذى نرسله الى الشيخ شعبان السيوطى فى طرف البلدة فيسهر عليه أياماً ويشذب نتوءاته ويحوله إلى عيدان عريضة متساوية ، كان عم شعبان ضئيلا نحيلا يحمل رأسه الأشيب عرقان بارزان. وجهه خطوط طولية وعرضية وعينان بالكاد مفتوحتان وانف دقيق وفم مطبق على سنين فقط ، علوية وسفلية . . .

سروال واحد يملكه يرتدى فوقه صديرى ورثه عن أبيه الحاج رجب السيوطى وكان قفاصا تشرب ابنه الصنعة لكنه تجاوزها الي تعريش السقوف . .

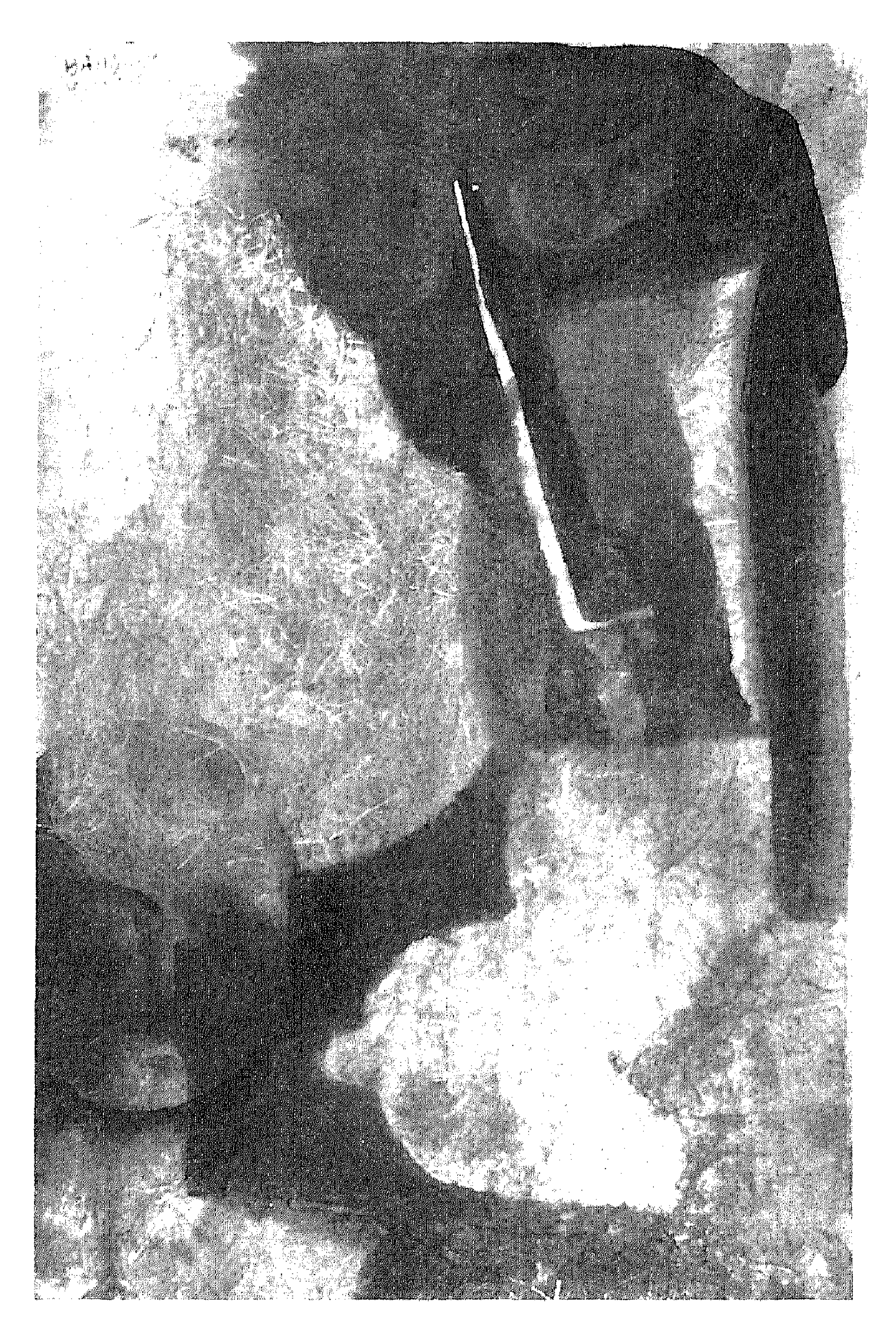
تابعت القمر وهو يغوص بين السحب الرمادية والزرقاء والبيضاء ، بدا وجهه الوحيد مثل طبق قشدة ، لكن بثورا غطت جوانبه وتشكلت فى عينى صورا وخيالات . .

كان اسداً فتح فكيه فوقه فارس اشرع سيفه وابتسم لى فى غموض . . لكن الفرسان يركبون جياداً ؟

وكان طاحونة دقيق مداخنها فى اتجاه السماء ، وفى بلدتنا يقولون ان الطاحونة اذا عطلت تديرها دماء الناس • ادارتها دماء عائشة السنة الماضية . .

كانت عائشة جميلة ، تربت على رأسى وأنا العب على الجسر وهى ذاهبة لغسل الصحون فى الترعة أو لملء " الزلعة " بالماء النظيف من " الطرمبة "

حزنت بلدتنا عليها وصارت حكاية نرددها دون تفاصيل ، فلا احد يعرف تفاصيلها ، ولما ماتت اعتزل ابوها العم شعبان السيوطى الناس ولزم دكانه ، واصبح



محمد مجذوبا وصار الشيخ محمد ، وفى بلدتنا الواعظ شيخا وكبير السن شيخا والمعتوه شيخا ٠

كانت النسوة يمنعن الاولاد عن القاء الحجارة على الشيخ محمد ، يصنعن له شايا ويجلسن معه ساعات يحكى لهن عن عائشة ، وهن يسمعن ويقلبن شفاههن ويتبادلن نظرات ذات مغزى ٠٠

عندما نظرت الى القمر كان غاب خلف سحابة رمادية كثيفة فخفت ان لا يعود وناديته بأعلى صوت فظهر من جديد فقرفصت وانتبهت لاراقبه ٠٠

لكننى كنت مخطئا ٠٠

لم يكن للقمر وجه واحد ، ولم يكن مثل طبق القشدة ، كان يسطع ويختفى ويعود ٠٠



الدائرة

أف ، قالها زميلى نافثا غضبا مكتوما وزاد : الان سيستقبلنا الريس عطية ببذاءته ، ألا يمل ؟

- ياأخى ، منذ توظفنا لم نحضر يوما فى موعدنا ، وهو لم يتأخر دقيقة منذ عشرين سنة ، لو كنت مكانه ما اكتفيت بالتوبيخ .

لم يعجبه الكلام فلوح بيده وتمتم بلاشىء ..

عقب دخولنا اخرجت ساندويتش الطعمية ولحقنى عم عبده بالشاى الساخن ودخنت سيجارتى الاولى باشتهاء تعودته ..

فى الثانية غادرنا المصنع ورأيته ..

دائما اراه ، ودائما اسأل : ما الذى يحمله هذا الذى لا يبيع ولا يشترى ؟

كنت اتابعه بطريقة تشى باهتمام ما ..

سنوات عمره التى جاوزت الستين ، وربما حمله الدائم احنت ظهره ..

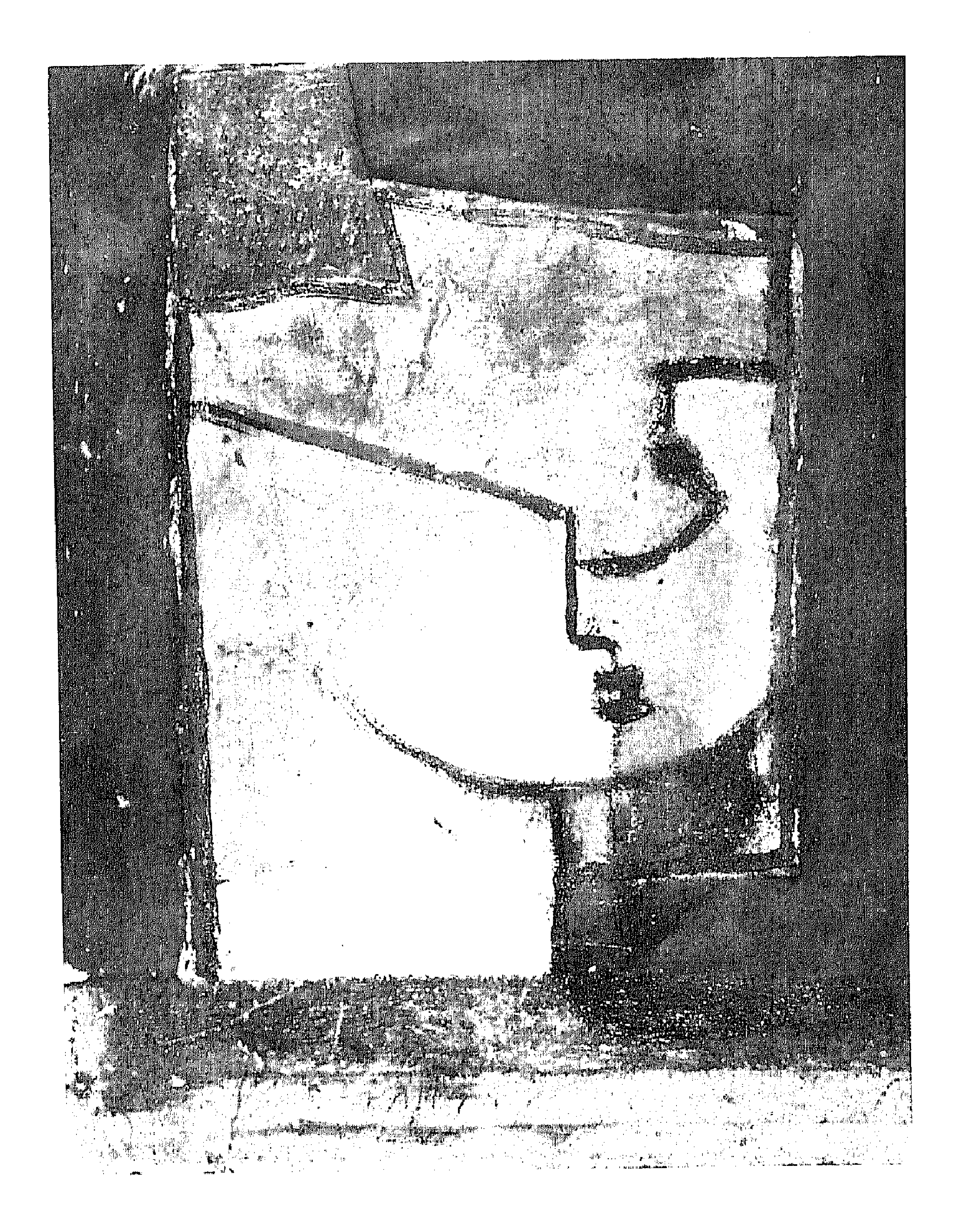
يعرف المدينة عن ظهر قلب وتسكنه حاراتها الشعبية الفقيرة واحيائها " الكلاس " .

شارعنا دائما نقطة انطلاقته ومحطة وصوله الاخيرة ..

كان يلفتنى اليه شىء ما ، ربما صمته ، ربما ملامحه الحادة المنتبهة واللامبالية معا ..

فكرت : الريس عطية يزجرنا كل صباح منذ ست سنين ، ونأكل الطعمية ونتبعها بالشاى والسيجارة منذ ست سنين ، ومنذ ست سنين نراقب اكياس البلاستيك ثم نعود الى بيوتنا .

يوما ما ، اثناء العودة ، لاحظنا تحلق المارة حول جسد مكوم وثياب ممزقة مضرجة



بالدماء واشياء مبعثرة : عيدان خشبية ومنبه صغير وسلاسل معدنية وعملات ورقية ومعدنية وعلب كرتون فارغة واطار صورة وعلب صفيح وساعة يد واوراق صحف صفراء قديمة ومقابض ابواب ومفاتيح وقلم رصاص وكراسة ذات جلدة حمراء وسخةوعلبة سجائر •

في صباح اليوم التالى : قررت ان لا اكل طعمية وان لااشرب شايا ساخنا وسأضرب عطية لو وبخنى ••

اثنان فى واحد

رائحة الشحم المنبعثة من ملابسه نفاذه ، يداه المعروقتان متسختان بالبنزين والتراب .
نظر الى اصابعه وفكر : لماذا تبدو العقل وكأنها نتوءات خارجة عن نظام الكون ، أراد أن يمسح حبات العرق المتساقطة بيده ، تراجع ، فقذارة الوجه لاتحتمل اضافة ٠

تذكر نزوحه الاول الى المدينة فارا من أبيه ، فحلا تزوج ثمانية ، أمه فقط أعطته الولد ٠

ابتسم فى داخله " سبع البرمبة جاء " تذكر تلك الحادثة : اشتعلت خناقة بين زوج وزوجته ، صبية صغيرة لم تتجاوز الرابعة عشرة ، هكذا اعتاد الفلاحون ان يسارعوا بسترة البنت ٠

إحتكم أهل الزوجين اليه : " انت كبيرنا ياحاج واللى تقوله يمشى على الكل " ٠

ابتسم مرة أخرى : يعرف انه لم يحج قط ، ولم يغادر القرية الاليتزوج لواحظ بنت المدينة التى جعلته يرى النجوم فى عز الظهر ٠

قال بوقار مصطنع : " اللى فيه الخير يقدمه ربنا " ٠ فى المساء كان يطلقهما ويخطب العروس لنفسه ٠

من سوق الفاكهة ، حمل كيسا من العنب البناتى ودلف على " وليم " ليشترى نصف كيلو حلاوة طحينية ، سيلتهمها بمفرده ، هكذا اعتاد ان يفعل كل خميس ٠

ابتسم فى داخله : يقولون ان ارجل النساء ترفع السماء ليلة الخميس ولولاهن لانطبقت السماء على الارض ، كتر خيرهن ٠

اعترى وجهه عبوس مفاجىء ، ليلة الخميس الفائت لم تجد الحلاوة ، شعر بنفسه

ينكمش و يتضاءل. دس يده فى جيبه ، أخرج جنيهات خمسة ، أعطاها للبقال و طلب الحلاوة و قطعة صابون بر يحة .

السادسة أمه بين زيجات أبيه الثمانيه ، أخرهن سميرة ، تقاربه فى السن ، بزواجها من ابيه صارت سيدة الدار .

ينام مع أمه وأخته التى تصغره فوق الفرن ، يوما أيقظته مثانته . إخترق المسافه بين حجرة الفرن و " الكنيف " نصف مغمض ، سمع أصواتا ، تعلقت عيناه بثقب الباب ، فى ضوء المصباح الخافت رآهما عريانين ، الفجر يؤذن ، سينهض أبوه الأن ليصلى ، إبتسم : ماذالو ذهب إلى المسجد عاريا ؟ شملته الرهبة وهو يتصور أباه يمسكه من قفاه متلبسا ، لوى عنقه للخلف بسرعه، ليس سوى ظلام ، إبتسم فى شماته : " لقد ضبطته أيضا متلبسا " ، وكض فى إتجاه الحجرة ، ألقى جسده فوق الفرن .

زوجة ابيه فى مثل سنه ، كثيرا ما رآها مادة ساقيها فوق طشط الغسيل والثوب منحسر عن فخذيها العاجيتين .

يذكر تلك الليلة ، كانت تستحم وطلبت ان يناولها الكوز ، الكنيف ضيق وبابه الخشبى لايوصد بأحكام ، نقر الباب . برزت بنهدها الايسر وذراعها الايسر وفخذها الايسر ، صار يعشق كل ما هو ايسر . أدار مفتاح الشقة ، لم تنتبه زوجته ، كانت تشاهد فيلما هنديا . رثة ، منكوشة ، غير مبالية .

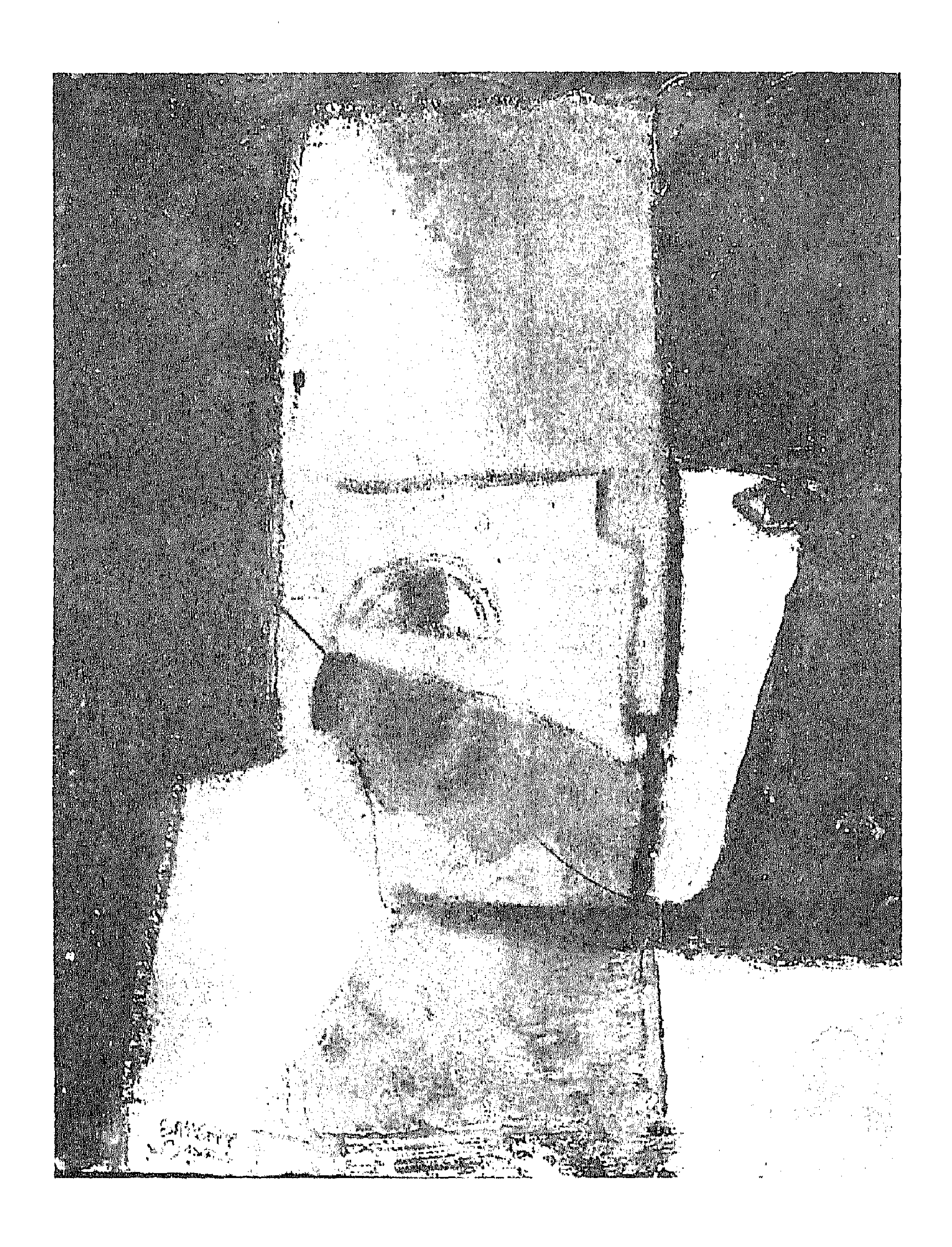
صادف صورته فى المرآة ، لابأس ، سوف تفعل الصابونة أم ريحه فعلتها ، ثم يلتهم الحلاوة دفعة واحدة بعد العشاء .

هل يطلب منها ان تستحم أيضا ، لا داعى فهو يعرف الرد سلفا : " إحنا كلنا أيه عشان نحلف عليه " . ليستحم هو .

حين خرج كانت تمشط شعرها مرتدية قميص نومها المصنوع من البفته البنيى .

بدت له مثيرة ، أحكمت حمالة الصدر بحرفنة فبدا الشق بين نهديها وكأنه باب الجنة الضيق .

تعشى ثم غسل يديه ، تكلم كثيرا ولم تنطق بحرف ، زفر بغيظ مخاطبا نفسه : " هى لا تريد مقدمات ، تريد فعلا . حين تهب العاصفة لا احد يسأل من أين جاءت ولكن الجميع يحسب النتائج "



إبتسم فى داخله : " سوف لا تنطبق السماء على الأرض اليوم " .

نهرته زوجة أبيه حين تمنع عليها ، ثم أنها أوشت الى أبيه الذى أوشك أن يقتله لولا أن وضعت أمه نفسها بينه وبينه ومنحته فرصة النجاة والهرب ، نظر إلى ساقيها المرفوعتين تتضرعان إلى السماء ، إبتسم : " هل يراقب السمائيون هذا الفعل الآن ؟ "

. أنهى مهمته فانقلب على ظهره ثم نام وشخر .

سيرة ذاتية

فى اليوم الاول ارتدى بدلة كاملة ..

سوداء كانت ورابطة عنق حمراء ، وقميصا ابيض اشتراه للمناسبة . توقع ان يقابله المدير ، لكن احدا لم يكن فى انتظاره برغم خطاباته المتبادلة مع ادارة الموظفين على مدى شهرين .

سأل الساعى عن مكتبه فأشار دون أن ينبس .

بعد ساعتين توافد الموظفون ، بقى مستعدا لسرد سيرته الذاتية ومشواره الوظيفى ، اعد نفسه لتلك اللحظة ، سيجلس " منفوشا " مبرزا " الكرافت " وسيتحين مناسبة للاعلان عن ماركتها .

لا مانع من بعض التواضع وتكلف البساطة لكن فى حدود .

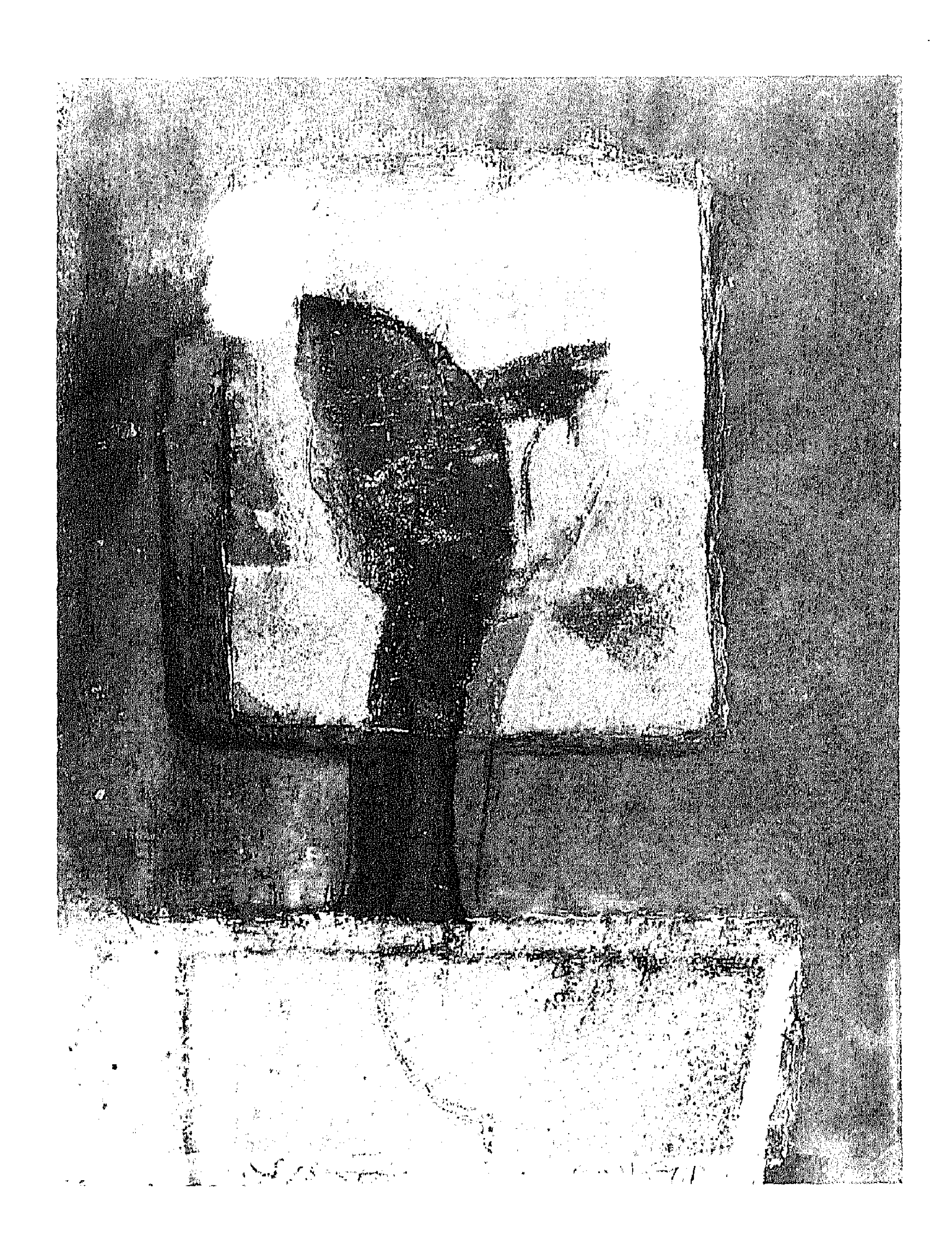
بطرف عينه لمح سوداء . منكوشة الشعر تطالع مجلة نسائية . فى المكتب المقابل كان احدهم توسد ذراعيه المتشابكين غاطا فى نومه .

فى الثانية غادر الجميع الادارة .

لم ييأس ، ولم يخلع البذلة .

ادهشه ان احدا لم يسأله عن سيرته الذاتية او يعجبه لمعان الحذاء ولون الكرافت ونصاعة القميص ، تمنى فقط ان يؤشر على ورقة او يطلب اليه انجاز عمل ما .

كان الساعى يضع الشاى فوق مكتبه ثم يدس يده فى جيبه ويأخذ حسابه وينصرف .



فى الاسبوع التالى ، فى بدايته ..

ارتدى بيجامة زرقاء مقلمة وشبشبا ..

ذقنه طويلة وشعيرات شاربه مدببة فى تحفز ..

جاء الساعى . وضع الشاى فوق المكتب ودس يده في جيبه وأخذ حسابه وانصرف ..

جاء الموظفون وبعد اربع ساعات انصرفوا ..

.. وانصرف ايضا ..

صبيرة

تتابع هبوطنا بتثاقل من صندوق الميكروباس المغلق مثل عربة الموتى ، نجر أحذيتنا الثقيلة التى بدا أيقاعها الخشن جارحا نعومة هذا الصباح الشتوى الرائق • بالخطوات البطيئة نفسها انطبعت آثار أقدامنا فوق الرمال الصفراء هبوطا فى اتجاه المعدية • زعق عم محمد على ولده الصغير أن يعيد المعدية بسرعه من البر الثانى . لوح الولد بيده وبدأ رحلة العودة •

كان يجذب سلاسل الحديد المستلقية قريبا من القاع والمثبتة فى أعمدة حديدية منتصبة بقوة على الجانبين ، وحين يبلغه التعب في منتصف المسافة ، يجلس على طرف المعدية ويفرك يده الصغيره التى حزت فيها خيوط بلون الدم ، ثم يواصل السحب من جديد •

قريبا من كوخهم الخوصى ، الملاصق لقطعة أرض صغيرة زرعها عم محمد واولاده خسا وذرة ونعناعا . كانت " صبيرة " تدعك بنشاط بائن اوعية الطبخ والصحون ، ترش قاعها بالرمل الأصفر وتمزجه بسائل صابونى ، وتدير يدها مثل الرحاية فى جوانب " الحلل " مستعينة بفرشاة من سلك الألمونيوم الدقيق المدبب ، ثم تغوص حتى ركبتيها فى ماء البحيرة لتنظفها بالماء كاشفة عن ساقين مشوهتين • كان بأمكاننا أن نلحظ بسهولة عرجا فى مشيتها يشى بعيب خلقى فى قدمها اليسرى جعلها تتقافز على أطرافها مثل راقصة باليه •

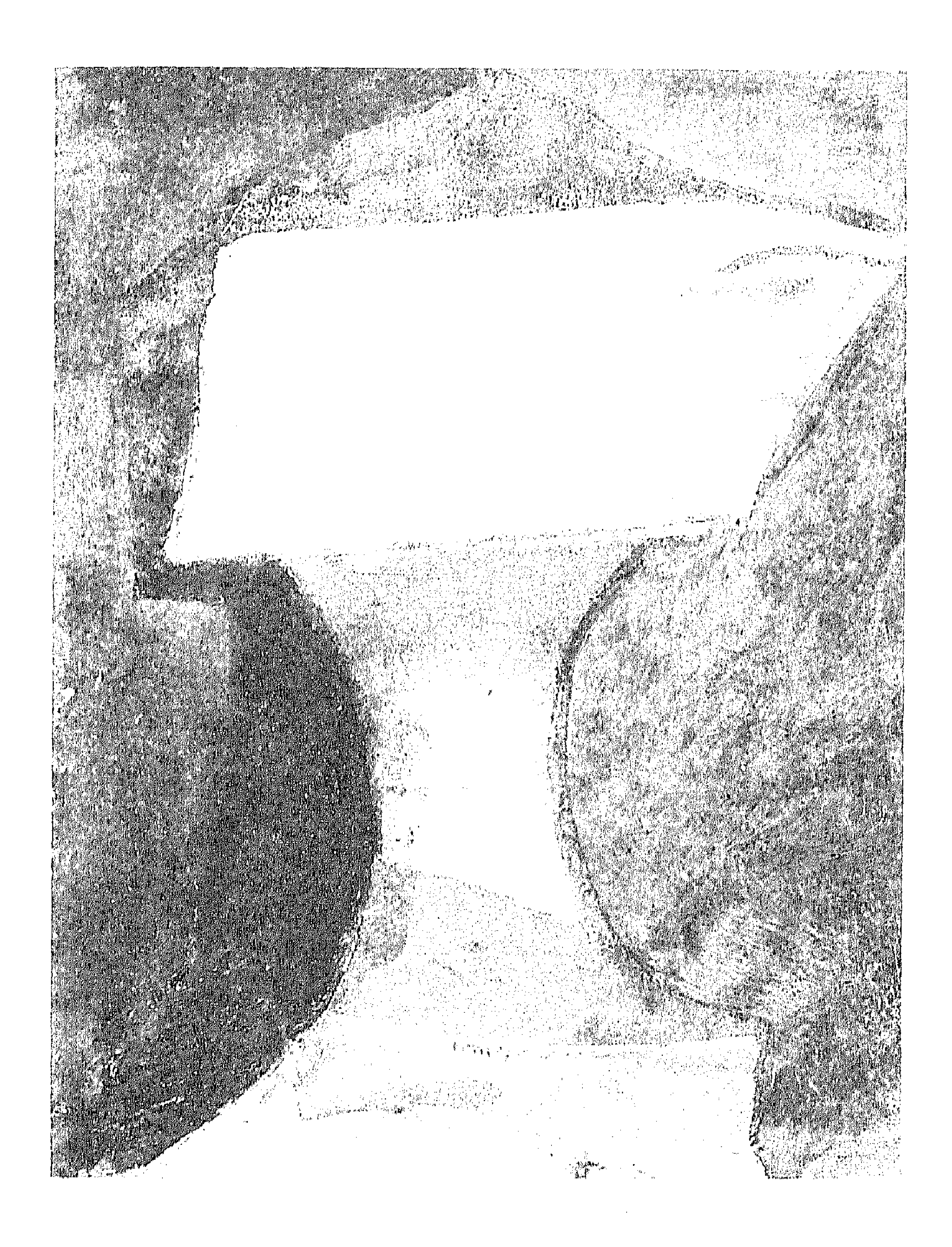
هل يستدعى المشهد مزاحا ؟

عنفت نفسى الامارة بالسوء احيانا ، وداعبت صبيرة كما اعتدت أن أفعل كل يوم ••

- تتجوزينى ياصبيرة ؟

- لما تجيب لى حلاوة الاول

- حاضر ياصبيرة وايه كمان



- وعيش من بتاع البندر

- بس كده وتلفيزيون ملون كمان علشان عيونك •

كنا مجموعة من المجندين في مطار أنشاص الحربى ولاوسيله تنقلنا الى وحداتنا الا معدية ابو محمد ، يوميا نمازح صبيرة بنفس الكلمات تقريبا ونتلقى ردودها ذاتها ، فبنت الخامسة والعشرين تحمل عقلا ضامرا ، وحدود دنياها بين الجبل وماء البحيرة •

فكرت : تحلم صبيرة بالحلاوة الطحينية وعيش البندر ، تحلم بفارس يدهن جسدها الملهوف حبا ورغبة ، بالزناتى خليفه يحرث يبابها وينثر فى بيدائها شموسا ورياحين •

هل أقول لها أنه لن يأتى أبدا ، وأن أنهار العالم لن تحيل ماء البحيرة عذبا ؟ كانت أمها تراقبها من مكانها أمام الكوخ وقد أسلمت نظراتها الشاردة إلى الجانب الآخر من البحيرة وخيل الى أن عبرات ساخنة تبلل وجه عم محمد ، هكذا خيل الى •

حين جاءت المعدية اندفعنا فى بطنها والحواف ، طالبنا عم محمد " بالمعلوم " خمسة قروش للذهاب ومثلها فى العودة • فك سلاسل الحديد من أعمدتها الصلبة فانسابت محدثة ضجيجا وجلبة •

كنا فى عرض البحيرة حين رمقت صبيرة بنظرة من بعيد ، كانت ما تزال تغسل الصحون ، وقد غاصت بقدميها سعيدة بفقاعات الصابون والبلل الذى طاول ثوبها المزركش •

الفخ

اخترت طاولة فى اقصى الركن الشرقى للمقهى وبدأت اعد عدتى :

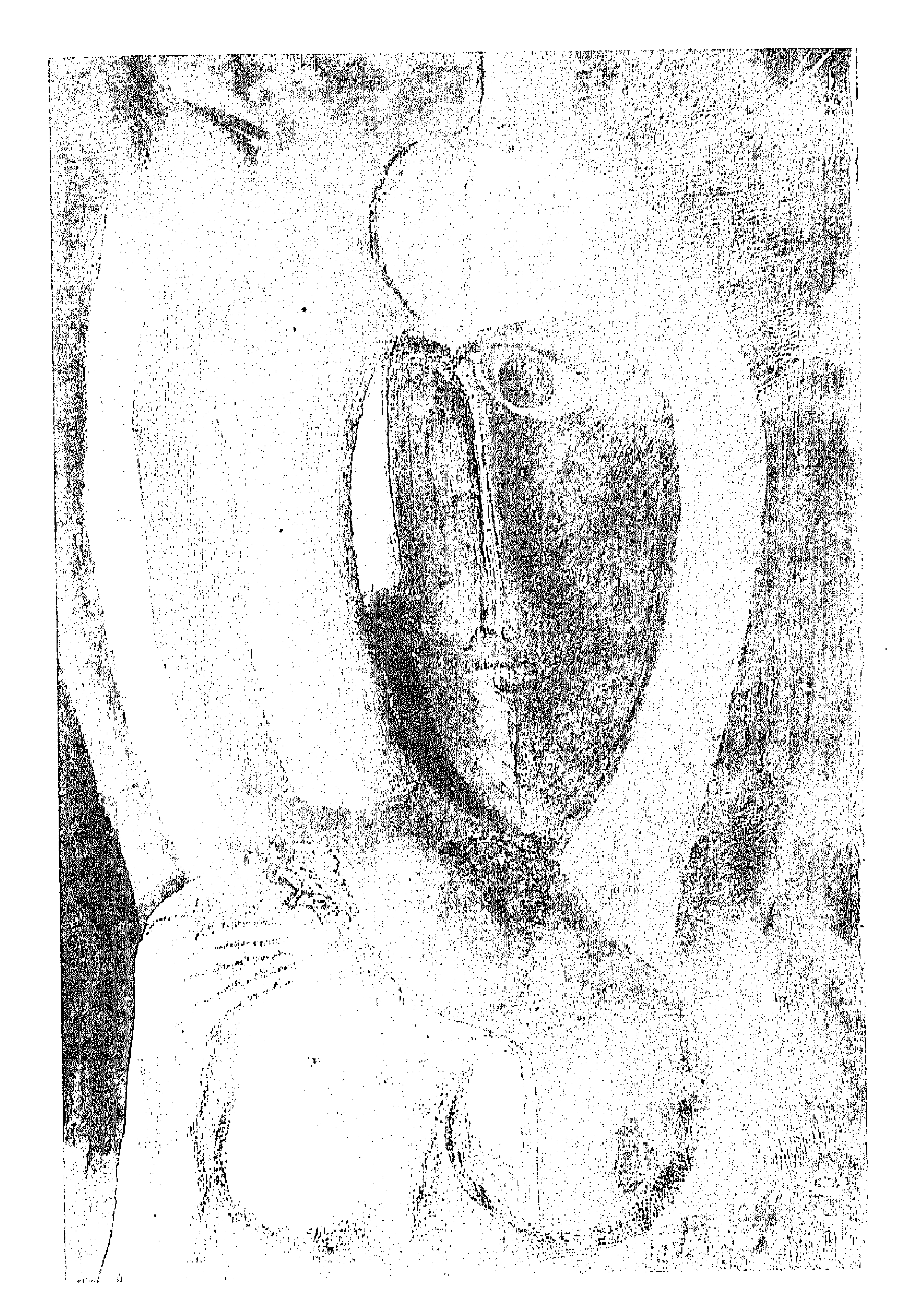
سأقول لها ان قرابتها للمدير لا علاقة لها بموضوعنا ، فانا معجب بها منذ رأيتها ، ولن ابدى دهشة لقبولها دعوتى بهذه السرعه التى دسستها مكتوبة فى احد الملفات المعارة من قسم الارشيف الذى بدأت العمل فيه منذ يومين فقط • استعدت فى ذهنى بعض مشاهد الغرام فى الافلام العربية ، مستبعدا تلك التى يتحدث فيها العاشق عن الزواج والاولاد ، آثرت بعضا مما قاله احمد رمزى فى سينما الستينات ، واخترت المقطع التالى : " طول عمرى محروم من الحنان ، عشت حياة لاهية ، ابويا الباشا••• " انتبهت ، هذا ماقاله احمد رمزى فعلا فى فيلم " تمر حنه " لكن ثورة يوليو الغت الباشوية ، اطريت على ذكائى واكملت المشهد : " ابويا تمنى ان اصير طبيبا لكننى التحقت بكلية الحقوق ولم تسمح لى درجاتى بالعمل فى الجامعة او الانخراط فى سلك النيابة فقبلت الوظيفة ، صحيح انها روتينية لكنها تناسب ظروفى اذ اننى امارس اعمالا تجارية بعد انتهاء الدوام " ليس ملائما بالطبع ان اصرح لها باننى ابيع جوارب وقمصان نوم حريمى وسوتيانات " سأكمل : المستقبل الان للعمل الحر ، والرزق فى التجارة ، اجهدت ذهنى لاتذكر حديثا شريفا سمعته عن التجارة فلم افلح ، هه لابأس . فكرت : واذا كانت من النوع الذى يخطط للزواج!

ازعجنى الخاطر فجهزت البديل :

– اى علاقة شريفة لابد أن تنتهى بالزواج ، لكن يجب ان يتعارف الطرفان جيدا قبل الخطوبة ••

لان كثيرا من الزيجات يفشلها عدم الفهم ، والافضل ان يتفاهما ليتخذا قرارهما على اسس سليمة •

قطع النادل تدفق خواطرى بالقهوة والليمونادة ونظر الى بخبث فرددت عليه



بمثلها ..

وكى لا يضيع الخيط كررت فى دخيلتى اخر جملة " أسس سليمة " ورددتها بصوت مسموع وباشارات من يدى وكأنى اخاطبها فعلا : " واخذه بالك اسس سليمة " ..

لمحتها تتجه نحوى بفستانها الازرق وحذائها الاسود المترب وحقيبة يدها الصغيرة ، جلست من دون ان تتكلم مكتفية بابتسامة خفيفة ..

بدت مرتبكة ، انشغلت لحظات " بطرقعة " اصابعها والحملقة فى مفرش الطاولة الذى احتوى على ثلاث وردات حمراء كبيرة ..

يزعجنى اللون الاحمر ، جعلت ذلك مفتتحا للحديث ، قلت : الالوان الساخنة مستفزة ، واردفت مستظرفا : والاحمر فى الحب لون الغيرة ..

لم تبتسم فسكت ادعوها الى الكلام ..

دست يدها فى حقيبتها واخرجت ورقة وقلما . قرأت ما كتبته : " ارجو أن تكتب لى ما تريد فأنا لا اسمعك بوضوح وغير قادرة على الكلام "

كانت صاحبتى بكماء وشبه صماء ..

بسرعة بسطت امامها محتويات حقيبة " اعمالى التجارية " التى لا تفارقنى ، وعرضت عليها بضاعتى فاعتذرت باشارة من يدها وغادرت فيما تحلق حولى رواد المقهى يعاينون " السوتيانات " .

التابوت

كان نحوله واضحا ، هربت سمرته النيلية واكتسى وجهه بلون الموت فيما أغلقت عيناه عنوة . كان ذلك واضحا اذ بدت آثار مقاومة عنيدة فوق جفنيه وباتساع وجهه الشاحب . ملفوف بالابيض الناصع ، لكن يديه المعروقتين كسرتا حدة المشهد واعادتا ترتيب الوانه .

زاحمت لالقى عليه نظرة اخيرة قبل ان ينقلوه الى البر الغربى ، الان يحمل النيل تابوته فوق مركب تغطيه مظلة كبيرة تحمى وجهه من حرارة الشمس اللاهبة . سمرته التى اعتادتها لم تعد تحتملها الان . وهن الجسد وانتقلت الروح الى بارئها ..

السواد يحيط بالموكب والنسوة يندبن الفقيد الغالى . بين العيون الباكيات رحت افتش عنها ، كانت تجمع شتات الغائب قبل ان يتحرك الموكب الى الضفة الاخرى ..

سيفتحون هناك بطنه من جانبها الايسر ، ويخرجون كبده واحشائه ، سيخرجون مخه كذلك وتخلط اعضاؤه بادوية وعطور ثم تجفف وتوضع فى لفائف ويغلق البطن . سيحتفظ الشيخ باللفائف فى اوان خزفية تبقى محروسة الى الابد . كان صوته المنبعث من التابوت ضعيفا يردد فى خشوع والم وكبرياء مهزوم مقطعا من نشيد الموتى :

"انى لم اعامل الناس بالسوء

انى لم اسلب انسانا ممتلكاته "

كان الصوت عميقا وكانه يخرج من قاع النهر .

اعى بعضا من سيرته المضنية المبهمة : كان دوما غريبا . بالوشم كتب اسمه فوق ذراعيه كى لا تضيعه المدن لكنها ضيعته .

صعدت النسوة يحملن صوانى مغطاة بشراشف بيضاء زاهية . وضعن الزاد فى صندوق صغير وناولتنى فتاة ابريقا ملأته من ماء النهر . كانت تشبه اختى هند بنظرتها الملتاعة وقلة حيلتها . وضعت الابريق فى الصندوق مع صوانى " الزاد " واغلقته امرأة



فى احكام ووضعت المفتاح بين اصابع المسجي وهى تتمتم بعبارات غامضة . امر شخص ضخم الجميع ان يهبطوا من فوق المركب فتصاعدت ولولة النسوة وتشبثن بحواف المركب وانهالت الدموع تبلل النهر ، عيناها آخرما رأيت . وانا اقفز من فوق المركب ، كانتا بلا تعبير وهما الحانيتان الدامعتان لأ بسط العذابات ..

لمع فى قلبى وجهه الباهت المنحوت من قلب الحزن وجسده الهزيل مثل عود قصب ممصوص بفعل امراض طفولته الريفية ، تحسسته وانا احتويه بذراعى واطبع على وجهه قبلتين واضمه الى صدرى . يضمنى وشعورنا المباغت باننا لن نلتقى بعدها ابدا .

يومها بكيت احساسى بالفقد الذى داهمني والطائرة وسط السحاب . تنبهت على نحيب النسوة البعيد ، ملأتنى غصة واستدرت اهرول فوقعت وملأ الرمل حلقى وانا اقوم وأقع ورائحة النيل تسكن جوفى المؤجج بالحسرة ودموع النهر .

القيت بنفسى فى النيل اريد ان الحق بالمركب وناديت باعلى صوت ، لكن صوتى لم يخرج .

كنت اقول لهم بدموعى انى اعطيه سنين عمرى الباقية ويعود او يأخذ من روحى انفاسها ليرى دمعى وندمى .

وحين غطى الماء نصف جسدى رفعت عينى الى السماء ورجوتها ان تعيده فأطبع قبلة على وجهه المنحوت من قلب الحزن ، الذاهل من نكران الجميل وضعف المحبة .

لكن السماء كانت زرقاء مشربة بحمرة ، والشمس عند البر الغربى والمركب فى عرض النهر والرجل الضخم يشير الى من فوقها ان اعود .

الخلاص

قال لى أن ما يؤرقه هو كيفية الخلاص منها ٠

سألته : ألم تتزوجا عن حب ؟

- قصة حب عميقة جدا ، نمت علاقتنا بقوة ، طوال سنوات كنا مضرب المثل فى تجمعات الاصدقاء فى الحب والتفاهم ٠

اشار الى صورة على الجدار خلفه ٠

هذه صورتها فى سنوات حبنا الاولى ، رسمها صديقى الفنان جمال كامل هل تعرفه؟

- أومأت بالايجاب ٠

- رحمه الله ، كان فنانا كبيرا ، عاش تجربة حبنا وباركها ، ووقف الى جانبنا فى لحظات عصيبة ٠

ما الذى جرى إذن ؟

- اشياء كثيرة تغيرت . قالها وهو ينظر الى وجهى ليكمل البروتريه الذى قرر ان يهديه لى ، نظرت من مكانى فلم ارسوى خطوط طولية وعرضية ، ولم استبن ملامحى ٠

- يبدو أن اقامتك الطويلة فى باريس غيرت من افكارك ، وارجو الا يزعجك قولى ان التغيرات طالت مشاعرك تجاه زوجتك ايضا ٠

لم اقل له اننى جلست معها قبل حضوره ، وتحدثنا فى امور كثيرة ، وحين قلت لها ان زوجها لن يحتمل العيش فى مصر التى غاب عنها ربع قرن قالت بتوسل مفاجىء : ارجوك لا تقل له هذا ، شجعه على البقاء هنا ٠

قلت لها ان من عاش فى باريس بالذات يصعب عليه ان يعيش فى غيرها ، كما ان

الاحوال هنا تغيرت ولابد ان غيابكم هذه الفترة قطع اواصر عديدة مع اصدقاء الشباب. قالت وحشرجة تخنق صوتها : نحن ايضا بلا اصدقاء هناك ، لقد خسرنا اشياء عزيزة. قالت جملتها الاخيرة بمرارة وكسى وجهها الخمرى شحوب مفاجىء ٠

كانت بقايا جمال ترتسم على الوجه برغم اقترابها من نهاية عقدها الرابع ، وبرغم تجاعيد واضحة فوق الرقبة وتحت العينين ٠

قال وقد توقف عن الرسم : ربما كان استنتاجك صحيحا ، لكن ثمه اسبابا اضافية تتجاوز التغيرات التى تتحدث عنها ٠

- اقصد ان كونك فنانا يجعل تأثرك بما حولك مختلفا ٠

دخلت الزوجة حاملة صينية الشاى ، ووضعت امامى طبق فول سودانى ٠ قال لى انه اشتراه فى رحلته الاخيرة الى الاقصر. احضر دفتر الرسم وبدأ يعرض على ما خطه فوق صفحاته ٠

سألته ما اذا كانت هذه الاعمال نهائية فقال ان ما ينقصها قليل ، بعدها ستكون جاهزة لمعرضه فى نهاية الشهر ٠

سألته وكانت زوجته لاتزال جالسة : هل ثمه تغيرات فى الناس هناك ؟

- قال : مازال الناس طيبين ،المدينة تغيرت ، لكن ما حولها بقى على حاله ٠ قلت انى اقصد المدينة بعد ان عرفت السياحة واشتغل أهلها فى الفنادق ، وفتحوا بازارات ليبيعوا انتيكات للاجانب ٠

قال : هذا طبيعى ، الدنيا تتطور واظن ان الناس هناك سعداء بما جرى ، أنت لاتعرف طبيعة الصعيد الجافة وقسوته البالغة ٠

ان لم تكن مالكا فى الصعيد فأنت اجير ومهان ،حتى لو كنت ابن قبيلة كبيرة هذا لا يغير شيئا ، داخل القبيلة ذاتها اسياد وعبيد ٠

اشارت الى زوجته قبل ان تغادرنا أن آكل من السودانى ٠

مددت يدى وانا انظر الى لوحة كبيرة على الجدار قاتمة وحزينة. وجوه متشابهة لرجال وسيدات واطفال تطل منها العيون بترقب. عيون غائرة عميقة كأنها تحفظ اسرار الكون وتنام عليها فى يقظة وصبر ٠

لمح دهشتى فقال : العين مرآة الانسان تفضح مشاعره مهما حاول اخفائها ، انظر الى



الوجوه انه التطلع للمجهول بكل ما يحمله من فرح وحزن وامل ويأس ٠

سادت لحظات صمت كان خلالها يتطلع الى وجهى ويرسم وكنت مشغولا بالسوداني والشاى ٠ قال فجأة : هل تعرف انها هددتنى بالانتحار لو طلقتها ؟ لم اخبره بما قالته لى ، ولكنى ابديت دهشة مصطنعه ، وادرت دفة الحوار فى اتجاه اخر قلت :

لكن الطلاق عندكم ليس مسألة سهلة فقد تحتاج الى ان تغير مذهبك او تثبت استحالة العشرة بينكما ٠

– لقد حاولنا مع الكنيسة هنا وهناك وفي كل مرة كانت تبكى كمن فقدت عزيزا . انها ترى فقدها لك هكذا فعلا ٠

قلب شفته السفلى كمن يقول ربما ٠

قلت له : ليس عدلا ان تحبك امرأة الى هذا الحد وتتركها ٠

قال : ربما لانها تحبنى الى هذا الحد لم اعد اطيقها . اقتربت منى الى درجة غير محتملة ، تراقبنى فى كل حركة ، وتدللنى وتتحدث عنى كما لوكنت اعظم رجل فى الدنيا ، هذه مسألة تقتلنى ، تشعرنى بأنى محاصر مسجون فى حنايا قلبها ، موثق بأوردتها وشرايينها ، اريد ان افك وثاقي وافلت من الحصار ٠

اضاف وهو ينظر الى السقف ويضغط على الحروف : فى ليالى باريس الطويلة اهرب منها وتظل تنتظر ٠

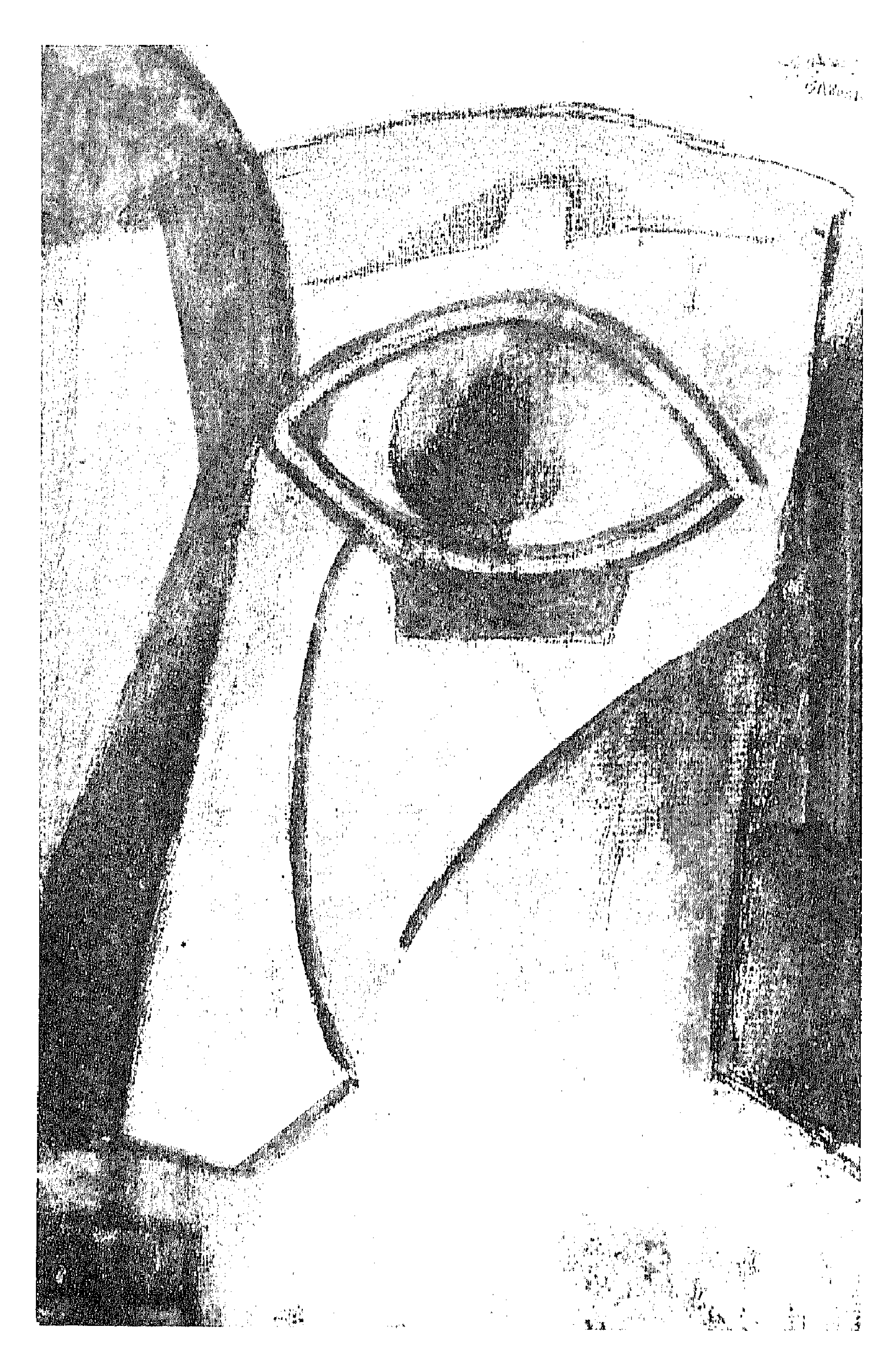
سحبت من امامه دفتر الرسم ورحت اقلب اوراقه ، لم يرسم الاقصر التى اعرفها ، اربعون عاما بين رسومه وواقع الحال ، هكذا فى كل لوحة ، بيوت فقيرة ووجوه سمراء واطفال يلعبون ، ابتسامات بريئة ونساء تحت ملاءات لا تكشف شيئا ٠

اوشكت ان ابدى ملاحظتى لكنه كان انتهى من الصورة وادارها لأراها ، قال وهو يسلمها لى : لن اقيم المعرض ، وسأقطع اجازتي واعود الى باريس غدا ٠

نهض يصافحنى معلنا انتهاء الزيارة ٠

صافحته واتجهت ناحية الباب . لمحتها فى ممر ضيق يفصل المطبخ عن مكان جلوسنا . كان وجهها اكثر شحوبا تحت ضوء المصباح الخافت . نظرت الى مودعة وبعينها نظرة التوسل ذاتها ٠

الفرص



طاف بعيونه على زبائن المقهى • كنا سحبنا مقعدين وجلسنا نتحدث عن ذلك الوغد مدير الشركة الذى طردنا وقال انه لا يريد فذلكه •

اقترب منا ، ربما يبلغ الخامسة والعشرين ، يرتدى جلابية رثه وعمامة ، خاطبنا بلكنة صعيدية ، اشحنا بوجهنا وافرغنا غيظنا فى أنفاس الشيشة •

كنا نقطع لحظات الصمت باستعادة مقابلة المدير ، ولعن الزمن الذى اوقعنا بين يديه . رويت لصديقى بخجل اننى لم اعمل مهندسا سوى سته شهور • بعدها عملت بوظائف شتى : مندوب مبيعات ، موظف فى شركة المياه ، سائق خاص لمدير كبير ، مدرس ، مراقب انتاج بمصنع احذية •

قال صديقى ان ذلك ما حدث معه ايضا ، فاستبدلنا غضبنا بضحك هستيرى وعبارات نشكو بها خيبتنا وقلة حيلتنا •

اقترب بحذر ، وطلب ان نشترى له رغيف عيش وقرصين طعمية •

اعطيناه جنيها ، اخفاه فى راحته اليمنى وهرول فى اتجاه المطعم . لاحظت انه يلبس حذاء اسود ثقيلا به ثقوب عدة من الامام والخلف ، ويحمل على كتفه فأسا منهوكا •

قال صديقى انه ليس من الحكمة اضاعة كل الفرص • وبلهجه حاده : الامر يحتاج بعض التنازل •

ناديت على صبى القهوة وحاسبته ، جفلت وصديقى عائدين الى الوغد ، عبرنا الشارع الى الاتجاه المقابل ، استدرت والقيت نظرة على المقهى : كان انهى طعامه ، وبدأ يسحب انفاس شيشتنا . كانت جمرة صغيرة تشعلها ، وكان يسحب بعمق وتلذذ •

للذى لايعود

حسرتى الكاملة ان ما انقضى من ايامى لا يعود • مثل غبار كثيف تبدو حياتك ، شاحبة كابية ولا شىء بعد• والعزاء فى التذكر •

البيت القديم الذى باعت امك لاجله مصاغها القليل ، سنوات تفترشون الحصير وترشون الارض بالماء فى الصباح وقبل النوم •

البراغيث تتقافز امام عينيك فى لهو بهيج ، تتابعها بكفك الصغيرة ، تهجم على واحدها فتتطاير ذرات التراب الى وجهك وتغمره ، تخترق عينيك ، تظل تضغط ، تفعصه حتى يموت فتترك يدك اثرا •

اصابعك وتجويف كفك المنمنم ، تسحبها وتبحث عن الفريسة ، فتنشغل عنها بشكل يدك وتظل تحملق ، تعجبك اللعبة ، فتواصلها بيدك الاخرى وقدميك ، وامك لا تنهرك •

يرحل ابوك باكرا ، تراقبه يغتسل وقد وضع راسه بكاملها تحت الحنفيه تاركا خيوط الماء تنساب على شعره الخفيف ، تلحقه بالفوطه ، وتنبهه دائما ، دائما ، ان بعض الصابون مازال فى اذنيه وخلفها وعلى الرقبة فيمتثل ويضحك • لحظات وتكون امك واختك اعدتا فطوركم من صنف العشاء ، هكذا دائما ، طبق من الفول للجميع ، تلتفون حوله ، الان يدهشك كيف ان ثمانية بطون كانت تكفيها هذه الحبات ، ستتذكر ايضا ، كيف حين كبرت قليلا ، قليلا ، كنت تواصل اللعب منذ خروجك من المدرسة حتى تغيب الشمس ثم تعود الى البيت •

فى العشاء الفول ايضا ، تأكل كثيرا واخوتك ، لكن بطون الخواء لا تشبع ، تعطيك امك الكوز كى تشترى ماء الفول ، لا فول مرة ثانية ، وحين تعود تقطع الاخت الخبز قطعا صغيرة وتضعها فى صينية من الالمونيوم وتصب فوقها ماء الفول وبعض الملح ، تغمسون اياديكم فيها وتأكلون •

كيف قدر الله لك ولاخوتك ان تكبروا الى هذا الحد ؟ الان تسأل كيف قدر لكم ان تصيروا رجالا ، تتزوجون وتنجبون اطفالا لا يأكلون الفول ، ولا تغمس لهم لقيمات الخبز في مائه ؟

كيف الان تغيب عن ذاكرتك ملامح هذا الاب الشقى ، اصطحبك مرات الى عمله . لم يكن يصلى ابدا ، لكنه حين يقف على عتبة البيت ، يلتفت اليكم ويقول بوداعة ورجاء : " ادعو لى يا اولاد" ٠

تظل امك تردد : " ربنا يرزقك برزقنا ويحنن عليك " ٠

ألم يكن بوسع امك ان تطلب من الله ان يرزقه بأكثر من رزقنا ؟

فإذا غادر البيت واحتوت كفه المعروقة الضخمة كفك الصغير ، لا يكف عن ترديد آيات من القرآن الكريم ، يرددها ويدعو الله بالرزق والستر والعافية ٠ وهناك حين يصل عمله ، سيتركك تلعب ، ويبقى وحده دائما ، يتجرع اهانات رؤسائه ٠

كنت ترى وتسمع وتحزن ، وكان يوقن انك لا تفهم ٠

تمنيت لو تكبر ، فتطبق فى عنق هذا البغيض الذى اعتاد ان يقرعه كلما رآه ، كان بياضه كالحا ، نظارته سميكة تخفى عينين مدغمستين ، تمنيت لو اظلمتا ، كثيرا ما اعاد اباك حزينا الى البيت ٠

"غدا ستصبح استاذا وترفع الحمل عن ابيك ٠ "

كان ابوك يقول لك ، وكنت تقول انك تريد ان تصبح ضابطا

كى تصفع البغيض وتلقيه فى السجن فلا يخرج منه ابدا ٠

الان تدرك ، تدرك ، جيدا ، لماذا كان ابوك يعود باكرا ليلة الخميس ، ولماذا كانت امك تستحم وتمشط شعرها وتضع مساحيقها الرخيصة ٠

ـا تفعل نساء الطبقات الفقيرة ، وابوك



يهدد مكانة الاب ، لكنك حتى الان ليس بوسعك ان تفهم كيف تجرأ مرات وتشاجر معه ، كانا مثل ديكين فى حلبة مصارعة ، ابوك الضئيل الضعيف يمسك بيدى اخيك من فوق الساعد ، واخوك فى الوضع نفسه ، وحين غرس اخوك اسنانه فى كتف ابيك ، هرعت اختك التى تكبرك بسنوات سبع وضربته على ظهره ، وكانت امك تصرخ ٠

تذكر الان حين قرصتك امك فى فخدك لما كشفت لابيك مغالطتها له فى الحساب ، تذكر ايضا حين نهرك ابوك وضربك بقسوة لما نظرت من ثقب حجرتهما ووجدته يقبل قدميها وهى تتظاهر بالنوم ، فلما حكيت لاخوتك قالت البنتان اللتان تكبرانك قليلا ، وعيونهما تبتسم ، ان اليوم هو عيد ميلاد امك وحين سألت صديقك الذى يكبرك قليلا اجابك فكرهتهما ، لكنك حين كبرت قليلا تعلمت ان هذه سنة الحياه فكففت عن كراهيتهما ٠

تذكر الان ، تذكر جيدا ، اباك الممدد على فراش المرض ، ينظر اليك والى امك واخوتك فتفيض الدموع من عينيه ، وتنهمر من عيونكم جميعا ، آهاته المتقطعة تحيل قلبك شظايا ورماد ٠

تريد ان تصرخ لكنك لا تفعل ، لكن اباك حين يهدأ وينظر اليكم يشعر بالرضا ، رضاالانبياء ، لكنك لن تحضر موته ، ولن تمشى فى جنازته ، وستبكى فقده الى الابد وستتحسر دائما ان ما انقضى لا يعود ٠

سلاسل القتل

الان تقف على عتبة الليل تنظر ما الذى جرى •

قضى الامر ، فإذا انبلج الصبح - هكذا قلت فى نفسك - سيكون شأن آخر. سحبت السكين الذى رعيته عشرين عاما ، وانطلقت مع شقشقات الصبح الاولى •

في الطريق أطلت الافكار ذاتها ، لا مفر ، النفس حاكمة ، أمارة بالسوء . بمن تبدأ يا شقى ؟

بأصل المصيبة ، ذلك الوغد الذي كان صديقا ، لم يرع حرمة ولم يخش معصية ، تذكر الان خياناته الصغيرة التى تسم حياتكما معا ••

فى المدرسة ، كنتما بعد فى العاشرة ، كان يسرق ساندويتشات الولد السمين ويهدده بالضرب ان فضح أمره ، خاف الولد واشتري غضبه بطعامه اللذيذ .

عرفت أن بوسع أقرانك ان تحمل حقائبهم هذا الغذاء الشهى ، زبد ومربى وجبن رومى وبسطرمه ، سمح لك مرات أن تقاسمه الغنيمه ، وقررتما معا الا تكتفيا بنصف ما يحمل السمين ، لم لا تأخذانه كله ؟ فعلتاها مرات ، كان الولد يتنازل عن طعامه صاغرا ، كنت تراه يبكى فى ركن قصى من الفناء ، فإن لان قلبك عنفك •

ويوم جاء ابوا لولد السمين استدعاك ناظر المدرسة ، أنت فقط أوشى بك السمين ، وأغلق البطش فمه عن البوح بصديقك •

فى طابور الصباح ، ضربك الناظر عشرين عصا ، مازلت تذكر خيوط الدماء التى اسالتها من يدك الصغيرة ، عرف الاولاد جميعا انك سارق • فى الفسحة ، انزويت فى ركن من الفناء ، بكيت بحرقة ، ولدهشتك ، كان شريكك والسمين يلعبان معا ، ويأكلان سندوتشات المربى والزبد والبسطرمة •

حين كبرتما قليلا ، لم يكف عن صداقتك وترويعك ، كان يدافع عنك ويواجه من

اجلك من يسيئون اليك ، كان ما يفعله يخيفك منه اكثر ويشدك اليه اكثر ٠

الان عاد من جديد يذكرك بضعفك القديم ، بجرائمه التى جرك اليها ، وبقيت مثل غصة فى حلقك ٠

الان قررت ان تهزم ضعفك ، ان تدفن الى الابد هزائمك ، ان توارى كل مشاعر الخوف والرهبة التى ظننتها تبددت ، لكنها عادت تطل مثل رؤوس شيطانية ٠

ستنتهى منه الان ، قضى الامر ولا راد لمشيئتك ٠

نسمات الليل الباردة تخترق صدرك ، تملأه فيصير اوسع واضخم ٠

تستطيل ويملأك شعور بالزهو والقوة ، هل قدر لك اخيرا ان تنتصر ؟

بعد ان تفرغ منه ، بعد ان تدهسه مثل حشرة ، ستقتلها ايضا ٠

الفاجرة ، كانت تنام معه مكرهة ، تخبرك بذلك حين يفرغ منها وتخلو اليك ، فتطيب خاطرها وتمسح دموعها ثم تزوم : ماذا تفعل ؟٠

والان يسيران معا متشابكى الايدى ، يضحكان منك ، فيما انت جالس فى ركنك القصى ، تلعق دموعك ، وهما يأكلان شطائر الزبد والبسطرمة ، ها قد حملت سكينك وعقدت عزمك ، لا راد لمشيئتك ٠

ستقتلهما معا ، بل الثلاثه ، هما والولد السمين ٠

ستشفى غليلك وتريح قلبك ، ستطفىء النار التى اشعلها وجوده ، وتؤججها مشاعر المهانة والانسحاق ، ستواجهه رجلا لرجل ، ستتلذذ بمظهره الضعيف ساجدا بين قدميك يطلب المغفرة ، ستركله فى وجهه ، سينساب الدم وتنفتح صنابيره من اذنيه ، فتصير بركة يسبح فيها مثل حيوان عفن ٠

ستقتلهما معا ، بل الثلاثة ٠

وجارك البغيض الاجش وزوجته القذرة التى لا يكف لسانها عن السباب ، ورئيسك فى العمل الذى يوبخك دون مناسبة ، وعمك الضلالى الذى سرق مال ابيك واماته بحسرته ، وزوج اختك النذل الذى طلقها وتركها تنوء بأطفاله الثلاثة ، والرجل الضخم فى اول الشارع الذى صفعك امام زوجتك فلم تستطع ان ترد اهانته ، والمومس التى نامت معك فلما فشلت فضحتك ، ومراد زميلك المرتشى الذى يسخر من مظهرك


BAHGARY

كلما رآك ، وسعاد ، سكرتيرة المدير التى صعدت على كتفك فنالها المدير ولم تنل منها شيئا ، وضابط القسم الذى ضرب امك وزوجتك ارضاء لابنة صاحب البيت التى يعاشرها بعلم اهلها ٠

أضيء نور ضعيف في الخارج .

كانت امك استيقظت وركبت قبقابها ، سمعت حشرجتها وخرير الماء فعرفت انها تتوضأ ، نقرت باب حجرتك فاستيقظت زوجتك وايقظتك ، اضاءت نور الحجرة وابتسمت ، نظرتما الى الطفل ، كان نائما ما يزال ، غيران نور المصباح الخافت داعب جفونه ، فبدت منه ارتعاشة ضحكتما لها ٠

أغتسلت وصليت الفجر ، كانت ترضع الولد وقد لاذ بثديها وهى تهنهنه ٠ كانت عيونه تسرح ناحيتك فى شقاوة ، قلت سبحان الله ٠

الجموع

لم يستطع حتى ان يتبين صاحب اللكزة القوية فى جانبه الايسر وماذا كان هو نفسه الذى تقبع كفه العريضة كأنها خف جمل فوق عظم كتفه • وما مصدر الدفعة فى ظهره التى فقد بسببها السيطرة على قدميه اللتين اتجهتا رغما عنه نحو الرصيف • حاول ان يتماسك حين اوشك ان يقع اكثر من مرة ، لكنه اخيرا سقط فوق البلاط المكسور وغطت اتربة سترته الصفراء وطالت بعضها وجهه •

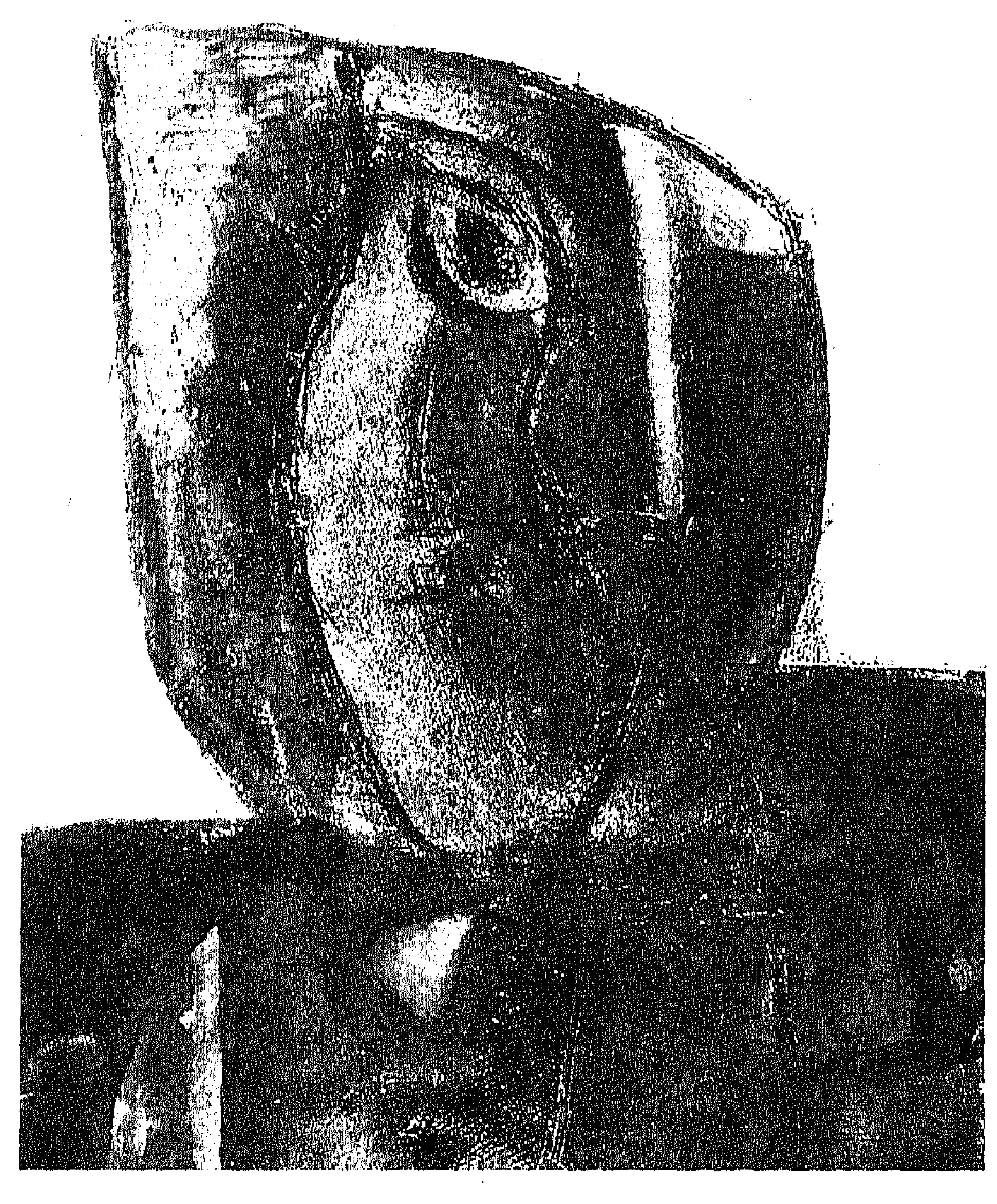
بذل جهدا ليقوم وانتبه على سيل من الشتائم والبصاق واطل بغل من نافذة سيارة فخمة وصرخ فيه " يلعن ابوك " • أعطى ظهره للشتائم وابتسم للنهر اذ وجده يجرى رغم كل شىء ، ردد بصوت بدأ خفيضا ثم ارتفع مع التكرار : طز .

مرت فتاتان بجانبه ، ضحكتا فابتسم لهما وعدل سترته ومسح بيده المتربة شعره الاجعد فى نشوة فأخرجت احداهن لسانها له وغاظته الاهانه فاستدار من جديد ناحية النهر واستند بمرفقيه على السور الحديدى وغاص بعينيه فيه . كان اولاد ستة تناثروا فوق قارب صيد صغير فيما رجل وامرأة يتضاجعان فى باطنه المكشوف • اوشك ان يصرخ فيهما : " هكذا فى عز الظهر " جال بعينيه وادهشه ان لا احد استوقفه المشهد فسكت • شعر باحدهم يعبث بمؤخرته فالتفت بسرعة ، لكن صوتا من أنف الشخص تكفل باستبعاد فكرة رد الاهانه •

وفجأة ، اندفع حوله المارة وهم يصدرون اصواتا ويأتون حركات واشارات واستمر سيل الشتائم والبصاق من السيارات المسرعه • وصعدت المرأة العارية من القارب وضربته على قفاه ورفسه الرجل الذى كان يفاخذها فى بطنه .

بدت الوجوه المتحلقة حوله شرهة ، غير مألوفة ومتشابهة .

اراد ان يصرخ لكن صوته احتبس ولم يخرج فاستدار للنهر لكن نهدى المرأة العارية كانتا كرتين من جحيم تنفثان لهبا ، اطبقت الجموع الهادرة فوقه وغاصت سترته الصفراء بازارها النحاسية اللامعة فى التراب ورائحة العفن .



العتبة

رائحة الظهيرة فى ميدان العتبة كريهة ومميزة ٠

وجوه متعبه متشابهه تطالعك فى عجلة ٠

وقفنا تحت المظلات الاسمنتية فى موقف الاتوبيس نراقب الذين انتهزوا فرصة الزحام والتصقوا بظهور السيدات فى بلاده ٠

ابتعدنا بمحاذاه سور حديقه الازبكية تطاردنا بألحاح اصوات الباعه وزعيق المارة ورائحة عرق الزحام وشرائط كاسيت مختلفة الانغام عالية وقاسية وشبان سود افترشوا الارض يبيعون بخورا وعطارة واخرون ملتحون يرتدون جلابيب بيضاء قصيرة يبيعون روائح مصنعه من ازهار الفل والياسمين والعنبر وخشب السواك وغلمان ينادون على زجاجات البيبسى كولا والملابس المستعملة يتمايلون مع مطرب اجش قبيح الصوت يغنى لكوز المحبه اللى اتخرم ٠

جذبنى صديقى الى بائع بطاطا بدا مشغولا باخراجها من الفرن فيما الدخان يتصاعد بقوة عبر ماسورة الفرن الموجهة الى اعلى بينما تناثرت حبات البطاطا النيئة فوق العربةالخشبية فى عبثية مقصودة ٠

كانت عيناه المجهدة تلتهم البطاطا بنهم ، لاحظت انه يلبس قميصا ازرق من قماش رخيص ياقته عريضه جدا وبنطلون بنى اللون يكشف عن جورب احمر مثقوب وحذاء كاوتشوك أبيض ، انتبه لوجودنا فجاوزنا وصوب نظره الى امام لايلوى على شيء ٠٠

كنا اشترينا الكتاب المقدس من مكتبة تخصصت فى بيع الكتب الدينية المسيحية وبدأنا نقاشا عن ماهية الاديان ٠

حكيت مشهدا ازعجنى أثناء عودتى اليومية من عملى الى بيتنا فى رحلة تستغرق ساعه تقريبا وسط وجوه شبيهه بالتى اراها الان ٠



كنت افكر فى هذا التشابه حين مر بجردله بائع المثلجات يزيح بمهارة الواقفين فى ممر عربة القطار ، ناداه طالب جامعى فلكزه زميله قبل ان ينتبه البائع ونبهه بصوت خفيض وهو يشير الى معصم يده " ده مسيحى " صدق زميله على ملاحظته باعتذار من عينيه اللتين تدليتا فى أسف ٠

انتهينا من أكل البطاطا وتوقفنا عند بائع مجلات بيروتية واجنبية أغلفتها فتيات شبه عاريات افترش ركنا بجوار سور الازبكية وراح يعرض بضاعته على مسافه مائتى متر من تمثال ابراهيم باشا " ابو اصبع "

كان فصالا خفيضا يدور بين بائع المجلات واحد المارة ، اعطاه الاخير جنيهين وخبأ فى حرص شديد صورة فتاه عارية ٠

حين انتبه لنا ، صوب صاحب الشراب المثقوب والياقة الزرقاء العريضة نظراته للامام واسرع خطاه ٠

ليالي شهريار

كانت شهرزاد تحكى كل يوم حدوته ليبقى عليها حيه ، حكت الف حدوته وعاشت الف يوم من القلق والتوتر وانتظار منظر رقبتها مجزوزة بسيف مسرور البطاش ٠

أفزعه المشهد فقام من نومه هلعا وتساءل :

لماذا لم تقبض بيديها على عنق شهريار اثناء نومه وتنهى حالة التوتر والقلق التى تعيشها ؟

سمع شخير زوجته وكأنه اجابة " قبيحة " على سؤاله ، استمر فى التفكير ٠

- سوف يقبضون عليها ويعدموها ٠

يمكنها ان تفر مع أحد رجالات القصر ، يمكنها ان توقع بجمالها احدهم ويتدبران الامر معا ٠

لعلها كانت تحبه ٠

كيف تحبه وهو يعذبها ٠

بعض الحب عذاب يا حمار ٠

ربما كانت تستمتع بما تفعل ، كما ان اباها كان وزيرا فى بلاط شهريار وهو اولى الناس بطاعته ٠

لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم ٠

هل تصدق ان شهريار لم يضاجعها ، الا رجح انها تمنعت ليال وتدللت ليال واضنته ما بين الحرمان والرغبة ٠

كان شخير زوجته ازداد الان وبدا مثل قطارسكه حديد فى الارياف)

ربما كان عيا وابقى عليها كي لا تفضحه ٠

قتل قبلها عشرات ودفن معهن سره ، اذا كان استنتاجك صحيحا ٠٠ فلم لم يفعل ذلك معها ؟

استدرجته الى التحدى

لم يكن مجبرا على الزواج منها ، حين تصبح زوجته سيتملكها ويعبث بها كيفما شاء .

ربما ضاجعت اخرين فى القصر ، مسرور مثلا ٠

.... ؟

هذا احتمال يقترب من اليقين ، فلابد ان شهريار نادى عليه مرات كثيرة وتذرع بالعلل ، ادعى التمارض او ان السيف ضاع او ارسله للسنان او ان ذراعه تؤلمه من طول ماجذ رقاب ٠

الم تجد سوى مسرور لتخونه معه ؟

ليست خيانه ، اولا شهريار لم يكن زوجها ، ثانيا مسرور هو المنفذ ٠ وباتفاقها مع المنفذ - الاداة - تحمى نفسها من سطوة المشرع ٠ اعجبته العبارة فقال ان شهريار سلطة تشريعية ومسرور سلطة تنفيذية وقد تحالفت شهرزاد مع السلطة التنفيذية فعطلت التشريع ٠

لكنها كانت تستطيع ان ترشى مسرورا او تمنحه من خزائن شهريار او خزائن ابيها الوزير ٠

(كان شخير زوجته الان مزيجا من لحن كلاسيكي عربى واغنية شعبية هابطة ونداءات بعة جائلين) وحين تزوجت شهريار ، هل ابقت على مسرور عشيقا ؟

لا يامغفل ، مسروردوره انتهى ، كان ذلك تكتيكا مرحليا ، اما الاستراتيجية فهي الاستحواذ على شهريار ، ومسألة العشيق هذه محلولة ٠

وهل كان شهريار غافلا عن ذلك كله ؟

وربما تغافل ٠٠

كان شخير زوجته الان سحابات من الظلام والابخرة الخانقة ، كان غبارا وسكاكين توجع اجنابه)٠



زاد توتره ، اشعل عود كبريت ، رأى وجهها كريها فظا ، تدلى ثدياها الى منتصفهما من قميص نومها الرخيص ، ثنت احدى ساقيها وتركت الاخرى ممددة كاشفة عن فخذين غليظين وبان شيئها غائصا بينهما •

لسعه عود الثقاب الذى احترق حتي آخره وسقط مطفئا فوق الملاءة •

فكر ان ينهى حالة التوتر التى انتابته ، فكر كيف ان شهرزاد لم تخنق شهريار واحتملت الف يوم من العذاب والالم •

القى على زوجته نظرة اخيرة قبل ان يدفس وجهه فى الوسادة وينكفئ ••

رحيل

حافيا صعد على واجهة العمارة وكأنه يزحف ، فوق سلم خشبى متهالك انهكه الاستخدام يحمل قصعة الاسمنت فى المسافة بين ظهره وقفاه ·

ساقان نحيفتان تتعجب : كيف تحملانه ·· والقصعة ؟؟

جاوز الطابق الرابع ، ثم بدأ يخطو كلاعب سيرك فوق لوح من الخشب الضعيف باتجاه المعلم الذى يقوم بالطلاء ·

حلم بان يكون معلما ، وان يتوب عليه ربنا مما يكابد ولكن ما باليد حيله. انتبه المعلم على صوت ارتطام بالارض ···

ارسل بصره الى ادنى ما يستطيع ·

لمح القصعة وذرات الاسمنت ووجها ملطخا بالدماء ·

احد المارة غطى الجثه بصفحتى جريدة ·

صورة كبيرة لرجل ضخم الوجه ، بدين ، ملغد ، وبالاسود العريض : تشكر الاسرة كل من واساها فى فقيدها بالحضور او بالبرق .

كانت بقعة حمراء غير منتظمة الابعاد تُتسع وتخفى ملامح الصورة .



الزحمة

اعطتنى السيدة جواز سفرى وقالت : الدفع فى شباك تسعه

سألنى الموظف : القاهرة - روما

نعم

اعطيته النقود ،كل ما ادخرت ، وضعها فى ماكينة العد الاتوماتيكية ، اتم بيانات التذكرة ٠

عبرت الشارع وانتظرت عند محطة الاتوبيس ٠

فجأه اندفعت فتاة فى النصف الثانى من العشرينات كانت على بعد مترين منى متجهة نحو رجل متوسط القامة يرتدى جلبابا ابيض ، صفعته على وجهه ودفعته فارتطم بى ٠

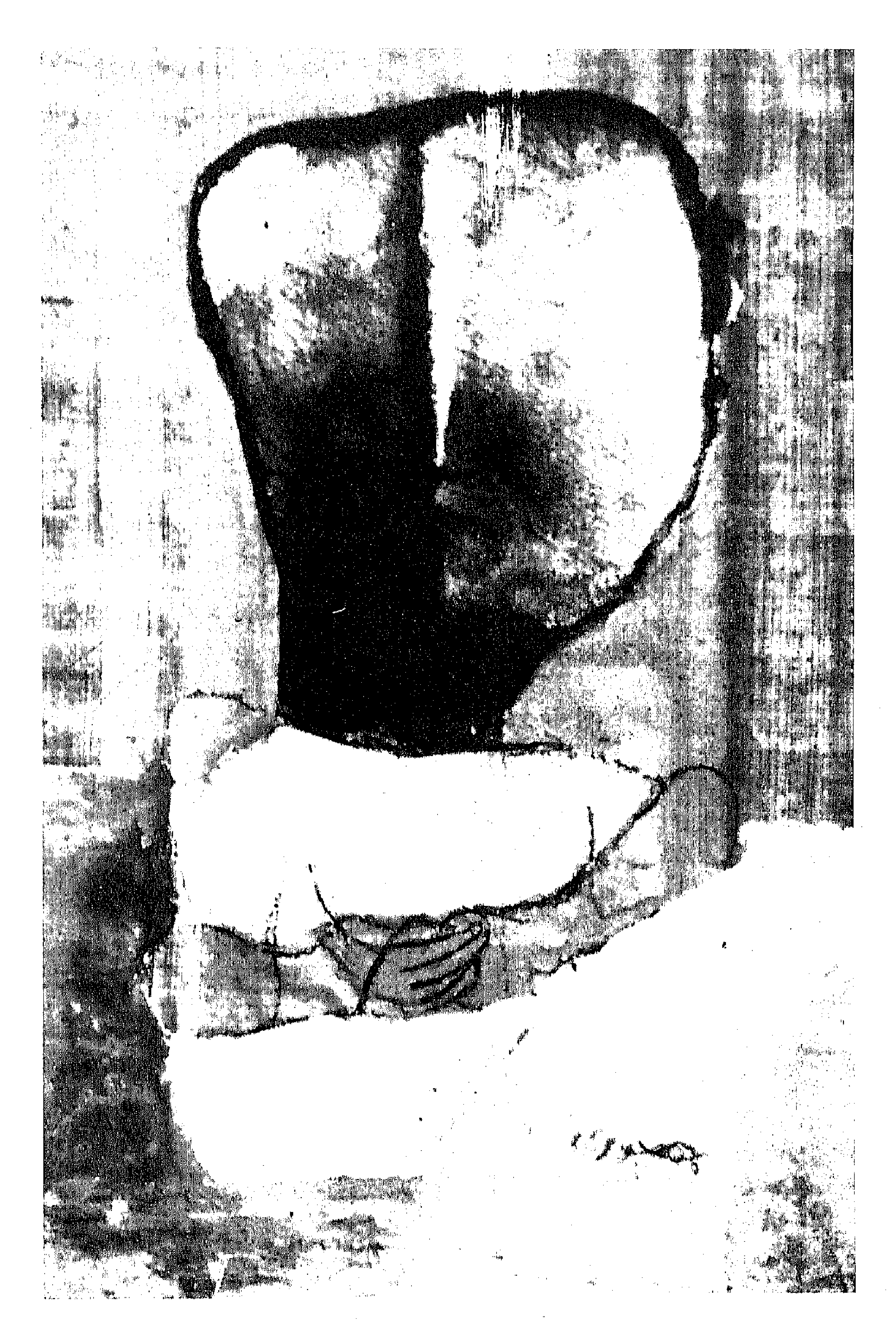
ظننت انه ربما احتك بها اثناء سيره، مشهد متكرر ٠

تحفزت لاشارك الفتاة فى توبيخه ، فهى ضعيفة ولابد انها استجمعت كثيرا من شجاعتها لضربه ٠ لكن الرجل فجأة اتجه نحوها ودفعها بقوة فسقطت على الارض ٠

شعرت بالاهانة ، تمنيت ان اثور واشبعه ضربا ،فكرت ان اساعد البنت على النهوض ، فكرت ان الكم الرجل ، كنت قابضا بقوة على التذكرة وباقى النقود . تدخل شخصان قال احدهما انه رقيب شرطه ولطم الرجل على وجهه

كانت البنت تنتحب وتردد عبارات غير مفهومة ٠٠

وصل الاتوبيس ٠ صعدت وانحشرت فى الزحمة ٠٠



البطل

اول الامر لم يعره احدنا اهتماما • أكثر من ذلك افصحت نظرات البعض عن كراهية واستخفاف • تحدث كثيرا عن امور بدت لنا تافهه •

جميعنا مجندون من حملة المؤهلات العليا الا هو • كنا نتأفف من هؤلاء الذين اختصروا طريق تعليمهم والتحقوا بالجندية بعد ان حصلوا على شهادات متوسطة • كانوا يطبقون علينا بقسوة قواعد الضبط والربط ، وكنا نرد عليهم فى اوقات الراحه بافتعال مناقشات من تلك المطروحة على مقاهي المثقفين فيتا بعوننا بانبهار وحسد فنزيد فى غينا وفى غيظهم •

ولان احدا منا لا يعرف الاخرين ، لم يكن ممكنا اختراع احاديث جانبية تلهينا عنه او تصرفه عن المتابعه . كان نداء السائق وهو يطل بوجهه من نافذة الميكروباس المقفله والتى تشبه عربه الموتى : الاخريا افندية ، حلا سحريا • اندفعنا فى اتجاه المعدية التى ستنقلنا الى الجانب الاخر من البحيرة حيث مطارا نشاص الحربى وقاعدة الدفاع الجوى التابعه له • انتهز بعضنا غفلة من السائق فنزل دون ان يدفع الاجرة • تبعثرنا فى بطن المركب وكان هو اخر من وصل •

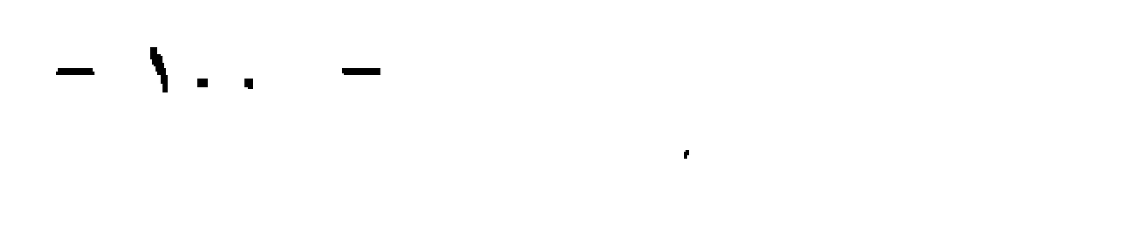
لا حظت عرجا فى ساقه اليسرى بدا اوضح حين حاول ان يقفز فى المعدية فاتكأ على واحد منا •

خصه ابو صبيرة صاحب المعدية بالتحية وبرر بانه معرفة قديمة . كان يخاطبه بالبطل وقبل ان تبلغ المعدية مرساها ، حكى لنا ابو صبيرة عن صموده فى حصار الثغرة وكيف واجه مفردا فرقة كاملة من جنود الصهاينه •

كانت عيوننا المفتوحة عن اخرها مستقرة على وجهه الاسمر الصلب الذي كساه لون الخجل وكنا منكمشين مثل فئران مذعورة .



شؤون صغيرة



كنت انظر اليها واتذكر دعائي في صلاة الصبح أن «يارب تخليني اتجوزها» .

بالامس جلسنا وحيدين فى " الفسحة " وتحدثنا عن اشياء مهمة ٠ قلت لها انى احب عبدالحليم حافظ وخصوصا اغنية يا«مالكا قلبى» فقالت انها ايضا تحبه لكنها تفضل " اسمر ياسمرانى " . قرأت لها بعض ما اكتبه وتلعثمت وانا احاول الايحاء لها انها المقصودة فلم اصب هدفى . قلت لها انى رايتها فى الحارة امس تلعب مع علي فقالت ان على وأمل «بيحبوا بعض ومتفقين على الجواز» .

كانت حصة انشطة وابله صفاء تحثنا على ضرورة الاهتمام بنظافة الفصل وتزيينه وعمل لوحات تعليمية نعلقها على الجدران، بعض اللوحات رسمتها لتعجبها، أحدها عن قصة احمد اللبان الذى كان يخرج مع طلوع الشمس يوزع اللبن علي زبائنه وينادى: ياحليب يالبن ياقشدة ، ويعود فرحا الى زوجته واولاده برزق اليوم ٠

رسمته شبيها بابى برغم ان صورته فى كتاب المطالعة كانت مختلفة جدا ، كان ابى ايضا يخرج كل صباح الى عمله لكنه لم يكن يعود فرحا دائما ، ووجدتنى اتساءل عما اذا كان الناس يعودون فرحين فى كتاب المطالعة فقط .

تنبهت على تانيب ابله صفاء لعدد من التلاميذ واشارت الى :

علمهم ازاى تكون الصلاة ٠

تقدمت مزهوا وبدأت اشرح للتلاميذ كيفية الوضوء وهم منصتون باهتمام وبعد ما فرغت فرشت الابلة سجاده صغيرة على الارض ووجهتنى ناحية القبله ،كانت العيون تتابعنى فى فضول وكذا كانت عيناها اللتين رجوت الله فى صلاة الصبح الا يدمعها ابدا ٠

وحين خلعت حذائى وانتصبت فوق السجادة ضحك التلاميذ وهم يشيرون الى قدمى ٠



نظرت الى اسفل فوجدت اصابعى خرجت من مقدمة جوربى المقطوع •

احمر وجهى جدا وشعرت بحرارة مفاجئة تداهم أذناى وعرقا يتحدى برودة الصباح الشتوى يكسو جبينى •

رفعت عينى فوجدتها تضحك • • •

مثلهم كانت تضحك •

تلك التى دعوت الله فى صلاة الصبح الا يدمع عينها ابدا •



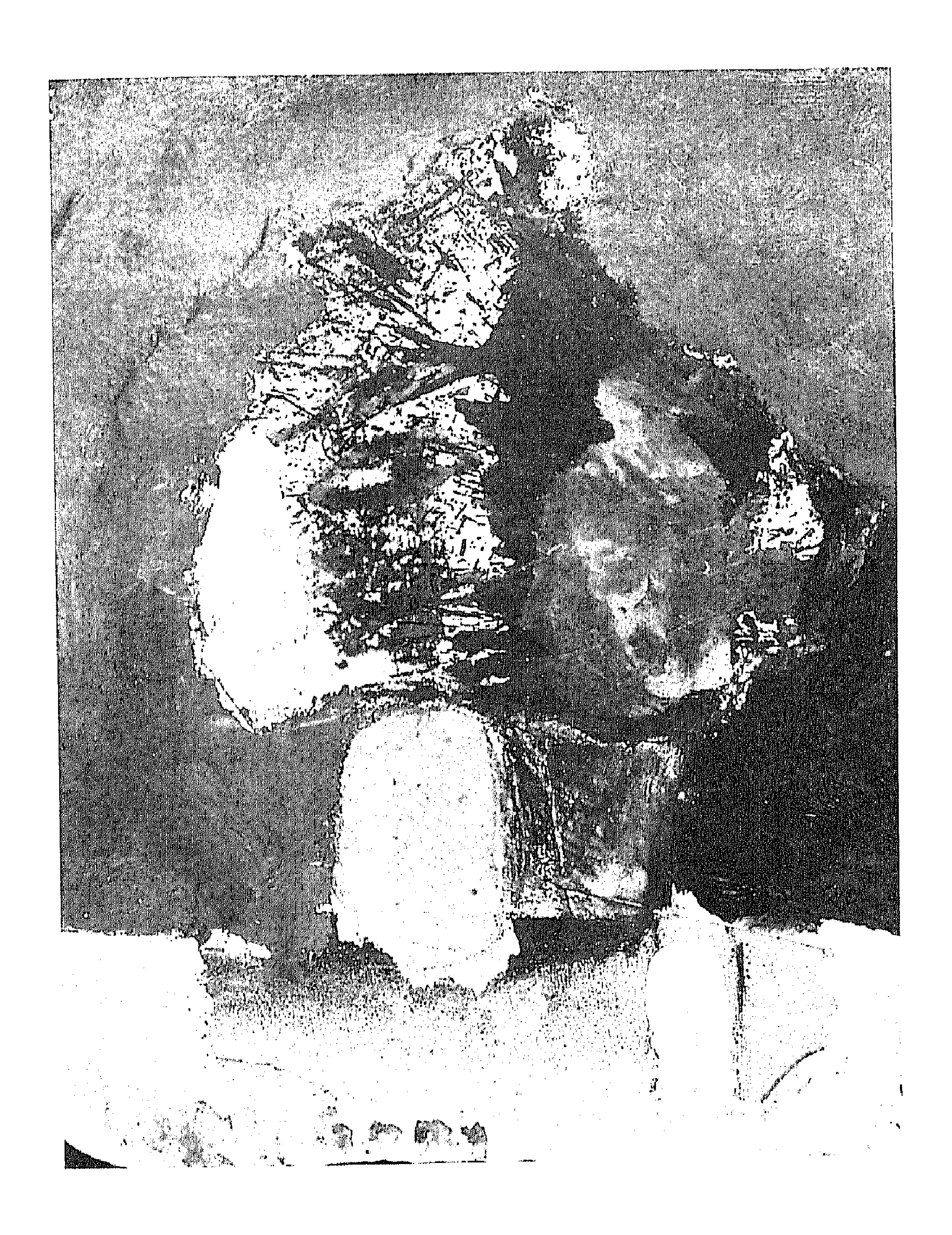
أم نجاة

كانت النسوة يولولن فى استمتاع مدهش ، ترفع كبير تهن عقيرتها فى المفتتح وترقب الاخريات ، ومـأن تجاوز منتصف الحركة حتى يتبعنها فى حرص وعفوية . مرات عديدة تبعت امى الى المآتم حتى الفتها : ام نجاة ، العجوز التى بدت لنا من حكايات اهل البلدة مثل ساحرة خرافية • قيل انها تزوجت عشرة رجال سحبت اربعة منهم من فوق نسوانهم ، هى لاتغلب فى كيد النسا ولذا تعمل لها النسوة الف حساب ، لكن رفيقها كان جنيا ازرق ، له عين واحدة فى منتصف رأسه تطق شرار ، كان يعاشرها ويأتمر بامرها ، وكنا لانعرف لها اهلا ، فقد هبطت على قريتنا كما تقول العجائز ذات مساء واقامت لها كوخا على اطرافها سكنته وحيدة ، لكن شهرتها فى السحر والطالع انتشرت بسرعه ، وفى كل المآتم رأيتها ، تفسح لها النسوة مكانا فى المنتصف ، مشاركتها محدودة اذا قورنت بالاخريات ، كانت تكتفى بان تذرف دموعا حيرتني اسبابها ، وينتفض جسدها الهزيل كانها توشك ان تنفق •

كنت أرقب حركة عينها المستمرة بين النسوة ، تتفحصهن فى مكر ومودة ، وحين تلتقى العيون تختفى مسحة الحزن برهه ، وتبرق العيون بحكايات لم اعرف كنهها ابدا •

مرة ، سحبتنى امى معها واطلقتنى فى دار الميت ، تجولت فى الدار الفسيحة التي تغمرها رائحة السمن والشواء ، تسللت الى حيث الرائحة ، كانت اواني ضخمة من الالمونيوم يغلى داخلها اللحم والطبيخ ، وبنات يكبرننى قليلا يشعلن بوابير الجاز ويغسلن الخضار والاوعية •

نادتنى الحاجة صاحبة الدار . اعطتني رغيفا وأشارت الى احدى البنات ان تحشيه سمنا وسكرا وسحبتنى البنت الى الطابق العلوى . صعدت خلفها فوق درج متآكل ، قادتنى الى غرفة كابية . بالكاد كنت أرى يديها . جذبتنى فى رفق الى داخلها ، سألتنى ان كنت احب السمن والسكر فقلت نعم ، ذكرتنى سخونة أنبعثت من صدرها برعشة



حمي أسلمتني للفراش شهرا كاملا ، أسلمت نفسي لمتاهاتها ، كانت تأكلني فى كل موضع ، يتمدد جسدها وينكمش ، تتكور شفتاها وتنفرجان وتصدر آهات مكتومة ، ثم ان كعوبها كانت تحفر الارض في عنف ، ضغطتني بشدة ثم ارخت سدولها وباعدت ما بين ساقيها ، كنت نقطة فى محيطها •

ناولتنى رغيف السمن والسكر وتقافزت نازلة الدرج •

جريت ناحية أمي ألوذبجوارها ، لكن نظرة من عينى أم نجاة سمرتنى فى موضعى

وأ وقعت رغيف السمن والسكر • جريت الى الاولاد فى الخارج وذبت في وسطهم نلعب النحلة . كان ظل البيوت يفرش الارض ، وتوارت الشمس خلف مئذنة المسجد الكبير .

الورشة

الآن صار للعربات ستريو و مكيفات وسنترلوك .

ما الذى افعله ان جاءني واحد من هؤلاء الاولاد الذين يحلقون شعورهم بطريقة غريبة ويدخنون سجائر اجنبية لأغير له الاستريو ، أوأصمم له نظاما للسماعات يجعل السيارة تهتز بايقاع غربى متلاحق ؟

كان لف البوبينة هو المهارة الاساسية التى حرص دوما على الا يتعلمها صبيان الورشة الا بعد ان يتقدموا كثيرا فى عملهم ٠٠٠

"حين يكبر الواحد منهم سيفتح ورشة ويصبح منافسا فى سوق ضنين " . كانت الصحبة تجتمع بعد العصارى ، يأتى شيحة القهوجى بالجوزة ، ويكون هو جالسا على باب الورشة ومعه عبدالمحسن سواق النقل وعنتر سواق البيجو ، يجلس الشيالون عزب وابو سيد وغريب والشح حولهم على الارض ٠

يجمعهم حديث عن النسوان والكورة وكرامات الاولياء ، ينتقلون عبرها بطريقة عجيبة مفاجئة ٠

يتحدث عبد المحسن عن المرأة التى استوقفته فى طريق عودته من كفر الدوار ٠ وطلبت منه ان يوصلها فى طريقه ٠٠ " كانت لابسه اسود وشايله مشنه وطويلة زى الشجرة ، كنافي نص الليل ، الكلام ده من ٣٠ سنه ، ركبت معايا ، قالت ان جوزها عسكرى وهى جايه من عند جماعه بتبيع لهم بيض وزبدة وجبنه قريش "

تنهد الشح بلهجة ضاحكة : طب ما تكمل ٠ فضحك الجميع ٠

فقد سمعوا القصة عشرات المرات ، ويعرفون ان الفلاحين اتلموا وكانت فضيحة لمرات العسكرى ، اما عبد المحسن ، فقد اخذ علقه تنسيه دائما ان يكمل القصة ٠

وينقلب السامر كله الى قفشات وسباب ، وخناقات مفتعلة ، لمزيد من البهجة

والضحك • يسرح قليلا فقد تجاوزه صبيانه واستقلوا بورشهم التى تصلح "سيستم السماعات والاستريو والسترلوك •

يقسم ابو سيد وكان نحيلا وعين واحدة تعمل فى وجهه انه ضاجع الولية امس ثلاث مرات وانه هم بالرابعة لولأنها توسلت اليه ان يعتقها ،زغده عزب فمال على جنبه بطريقة مقصودة رافعا ذراعه فى اتجاه السماء قاسما بالله انه صادق ، لكن احدا لايصدقه فيعاود القسم مرات وهو يضحك من عزب الذى ضبطوه يضاجع الحمارة •

ينغمس عنتر فى سعال وضحك متصلين حتى تحمر اذناه وتلمع صلعته . يناول الجوزة لعبد المحسن فيتلقفها على جانب فمه •

"راحت الزباين المحترمه والعيال الجدد لايراعون كبيرا " يتذكر الان هبوطه الاول من قريته الى المدينة ، صبيا فى العاشرة ،عمل فى ورشة السخن بيومية قرشين صاغ ، كان ينام فى الورشة ، يصحو مع الفجر ينظفها ويجهز العدة ويولع عودين بخور ويرش المياه امامها • يبدأ صبيان الورشة فى التوافد منذ الثامنة اما الاسطى عطا فيأتى فى العاشرة ،عينه منتفخة وحمراء وكأنه لم ينم طول الليل ، يجلس مباشرة على باب الورشة يأتيه هو بصحن الفول واقراص الطعمية الساخنة وفحلين بصل • يلتهمها برغيفين بعدأن يقسم انه لسه فاطر فى البيت ،ثم الشاى والجوزة •

كان يمارس عمله بهمة لافتة جعلت الاسطى عطا يضربه كثيرا . كان الاسطى عطا على يقين من ان الصبى الذى لايضرب لن يتعلم شيئا •

قال مخاطبا عنتر : وتقول لى صنايعية دلوقت ده جيل ما يعلم به الاربنا •

بدأت الحكايه حين تحولت قهوة شيحه الى بوتيك للملابس الجاهزة . قال له شيحه مرة ان شعبان ابنه راجع من العراق ومعاه قرشين عاوز يشغلهم .

بدأ شعبان باليافطة ، شال " قهوة شيحه "وحط مكانها " بوتيك شيكو " اسم الدلع الذى اختاره لنفسه •

بعدها صار مخزن الزقازيقي بتاع الخردة معرضا للقيشانى والسيراميك وتحول عطا السباك الى بيع الاحذية والشنط الحريمى . واختفى عزب والشح و ابو سيد •

نصحه عنترأن يقلب الورشة محلا لبيع الكشرى ، رفض باصرار فليس أقسي عليه من ان يترك كاره . قال عنتر : ياراجل بلا كارك بلا دارك ، هى فين الزباين ، وكله غير اشمعنى انت اللى حتفضل على حالك •



لم يرد •

بعد اسبوعين جاء عنتر بمشترى للورشة : عرض ثلاثين الف جنيه ، نصفها له ، والنصف الاخر لمالك العقار •

بعد اسبوعين كان لابد ان يوافق •

قبض نصيبه فى مظروف اصفر واختفى عامين عن المكان كله • وحين حمل الناس الجثة من امام الورشة سقط من جيب الصديرى مظروف اصفر تطايرت النقود من داخله . تعاون الناس فى جمعها • عدها مالك الورشة الجديد صاحب محل الصرافة . وجدها خمسة عشر الفا بالتمام ، وضعها فى المظروف ومصمص شفتيه وتمتم : الله يرحمك يا عم كمال ، كان جاى يرد باقى حسابنا • ووضع الفلوس فى جيبه •

الطيور

(١)

بلا اراده ، تراجعت خطوات للخلف ، كانت سخونه شديدة تلفح الوجه ، نفث من جهنم ، ولزوجة مفاجئه تسرى فى الجسد ٠

فى الطائرة ، هواء المكيف البارد يحكم الخدعه ، وحين تهبط فى مطارهم ، لا يمنحوك فرصة الاكتشاف ، تنقل من الطائرة الى صالات المطار عبر انبوب لا تستبين منه شيئا ، ثمة رعب خفى مسيطر ، وحين اطالع الوجوه ، تسرى الرعشة ٠

قيل : ان تحتمى بالناس وتأنس بهم يزول الخوف ٠

لكننى حين افعل تزداد وحشتى ووحدتى ، بدا لى ، ان الجمع تسكنه المشاعر ذاتها ، هؤلاء القادمون من الهند والفلبين وباكستان واندونسيا ، فقط المواطنون والغربيون يبدون مطمأنين ٠

تعرف الآن ، ان الناس ليسوا متساويين كأسنان المشط ، هنا ايضا ! ؟

النار ولهيب الجنة ،

هنا وعد ووعيد

وليس سوى ان تجرب

(٢)

كانت وزوجها يبكيان بحرقة ، يتوسلان بمفردات عربية تعلماها فى فترة اقامتهما البسيطة .

يصر " الشيخ " الذى استقدمهما من بلديهما الا يقيما معا .

تسكن المرأة فى بيته ، بيت الشيخ • اما الرجل ففى غرفة ملحقة بحديقة البيت الكبير .

الرجل يكلم الهواء : " انا فى سواق عشان سيدى ، حرمة عشان بيت ، كيف انا وحرمة حجى ما نعيش سوا سوا" •

كنت اسال عن صديق اخى الذى يعمل هنا فى مكتب استقدام العمالة الاجنبية ، كى يساعدنى فى ترتيب أقامتى •

لم يكن الفلبينى وزوجته يريدان اجابه على اية حال ، توسلا كثيرا لكن احدا لم يعرهما اهتماما •

وصل الشيخ ، ربعة فى السبعين ، ذو كرش ولحية ، يرتدى جلبابا ابيض نظيفا وشبشبا وغطرة ، وسواك يلوكه فى جوانب فمه •

انكمش الرجل وزوجته حين رأياه ، كمنا فى ركن الصالة الطويلة ، اما الشيخ فقد اتجه الى صاحب المكتب وقال بلهجة مهددة " ده الحين انا مابريد الفلبينى ، اذا الحرمة تبغى تخفى معاه مومشكلة ، باعطيهم مغادرة ، لكن مالهم حقوق عندى "

كان الزوجان ينصتان من مكمنهما والشيخ يتابع فى عبارات سريعه •

جاء صديق اخى فانشغلت عنهم • قال لى ان انتظره فى سوق قريب حتي انتهاء الدوام .

حين خرجت ، كان الفلبينى يقود السيارة وزوجته والشيخ يجلسان فى المقعد الخلفى •

(٣)

في الحجرتين اكثر من ثلاثين شخصا ٠

اختار صديق اخي لنفسه حجرة صغيرة مع اثنين من اصفيائه . حين زرتهم في المساء وقد انهوا جميعا اعمالهم ، زاد العدد قليلا ، بدأ مصطفى يجمع الريالات لشراء العشاء . لاحظت ان بعضهم انزوى جانبا ، حذرهم مصطفى ان من لم يساهم في تكاليف العشاء لن يأكله ٠

الحجرة مراتب أسفنجية ، مرصوصة علي الارض ، لافراغات سوي ممر ضيق يسمح بالكاد لقدمي شخص بالعبور يوصل الى باب الحجرة . الوجوه متعبة تشع تعاسة ، لاحديث الا عن الغربة والعذاب " وسنين السواد اللى حوجتنا وبهدلتنا "

الكلام يدور بحذر وتوجس . الحقائب على رؤوس المراتب كانها مهمات جنود في كتيبة تستعد للرحيل ٠

بعضهم يخرج ويعود دون كلام ، ربما هربا من جو الغرفة الخانق . أحدهم انزوى يكتب في كراسة صغيرة وانغمس ثلاثة في لعب الورق ، واكتفى الباقون بالمشاهدة او التعليق من بعيد . الحجرة الثانية اضيق قليلا بها عشرة اشخاص ٠ احتشدوا حول تلفزيون ١٤ بوصه . باب الحجرة يضعك مباشرة في مواجهتهم ٠

د فعتني رائحة الغرفة الى الهروب بسرعه ٠

سألت صديق اخي ٠ كيف اقتنص لنفسه حجرة بمشاركة شخصين فقط قال انه الذى استأجر الشقه ، ثم اجرها من الباطن للباقين مقابل ٧٠ ريالا في الشهر للفرد الواحد ، وهكذا يكسب هو حوالي الف ريال ٠ وهي حيلة اهتدى اليها بعد ان توقف كفيله عن دفع راتبه وخيره بين العمل بلقمته او ترحيله فاختار الاولى وأفهمني انه يذهب كل شهر الى صاحبة البيت بالايجار كي لاتاتي وترى الحال ٠

بعد يومين عاودت زيارته وعرفت فورا ان صاحبة البيت كشفت الحيلة ، فقد كان الجميع يحمل امتعته وينسل في انسحاب غير منظم ٠

(٤)

يريد عبدالرحمن ان ينقل كفالته من ابوعبدالله " الى شريكة " طلال "
الذى انفصل عنه واسس شركة للسفريات •

عبدالرحمن الذى فر من حلب بعد ان دكتها فاذفات الجيش السورى لايلح فى نقل الكفالة رغم اضطهاد ابوعبدالله له • فهو يخشى ان يرحله كفيله ، ويعرف ان عودته من جديد شبه مستحيلة ، فتأشيرة الدخول للسوريين تباع ان وجدت بخمسة عشر الف ريال •

روى لى عبدالرحمن كيف ان ابو عبدالله رفع الحصة التى يتقاضاها منه شهريا الى الضعف مقابل استمراره على كفالته ، وانه هدده بترحيله ان لم يدفع او أصر على الانتقال الى كفالة شريكه .

سألته عن سبب تعلقه بالعمل لدى طلال فقال انه وعده الا يتقاضى منه مقابل كفالته . وانه سيعطيه راتبا مجزيا مقابل العمل عنده فى مشروع للمطابخ ينوى اقامته •

سألته : وهل تصدقه ؟

قال : ما باليد حيلة •

ابو عبدالله شاب فى اوخر العشرينات رأيتة مرة واحدة ، كان عائدا من مصر أطلعني على صورتين لفتاتين فى السادسة عشرة قال انهما شقيقتان من الحوامدية ، الاولى زوجته والثانية زوجة ابيه ، دفع ابوه فيهما ستة الاف جنيه

قال ابوعبدالله وهو يغادر مكتبه الذى كنت اجلس فيه مع عبدالرحمن :

والله حلوين المصاروه

كان صوت قهقهته يصلنا من بعيد •

(٥)

خيل الى انه ابى الذى يبكى • كان يشبهه كثيرا • خصوصا في ايامه الاخيرة حين هده المرض ونهشت البلهار سيا كبده •

كان يتوسل الى اسعدصاحب مكتب الاستقدام أن يعيده الي مصر ، قال له أسعد أنه لايستطيع الا بموافقة كفيله ، وحول عينه الى كفيله فجاءته الاجابة باشارة حاسمة من يده تفيد الرفض •

اما الشناوى فهو مزارع جاء من المحلة ليعمل فى ارض الشيخ مقابل ستمائة ريال فى الشهر ، بخلاف اكله وسكنه ، وفى سبيل المجيء الى هنا— قال لى— بعت مصاغ زوجتى واستدنت خمسمائة جنيه ، وحين جئت وجدتنى اقيم وسط العقارب والثعابين ، وعلي أن ادبر طعامى من الاربعمائة ريال •

قلت ستمائة ؟

قال : خفضوهم اول ما وصلت •

فانبرى الكفيل بلهجته الحاسمة ذاتها : وانت وافقت موصحيح ؟

قال الشناوى وقد تدلى رأسة كسيرا على صدره : ايوه

قال الشيخ بشعور المنتصر : هاوالعقد شريعة المتعاقدين ده الحين انت تزرع الارض حجى سنتين ما تفتح خاشمك ، ولا يحق لك تشتكى ، انتم تقولون فى مصر القانون لايحمى المغفلين وانا مالى صلاح بالهرجه حجتك : ايش قولك ؟

اراد الشناوى ان يقول شيئا لكن الدموع حبست صوته فلم تخرج سوى حشرجات واشار اليه الشيخ وهو ما زال على حزمه : هيا .

تبعه الشناوى وهو يجر رجليه كالذ بيحه وقد اطفأت الدموع نور عينه •

(٦)

سألنى نورين افرح ان اتوسط له عند الشيخ كى يزيد راتبه لا ن ابنته على وشك ان تدخل المدرسة فقلت له : ياعم نورين انا وانت على باب الله ... [illegible] فى مصر ما اعرفشى اتوسط لك •

فقال بعربيته التى كنت احبها انه مجرد سائق ولكني موظف م[illegible] [illegible]كن اذا كلمت الشيخ يستجيب لى ، فقلت ساجرب يا نورين لكنى لا اعدك بشىء •

سرحت في اوراق امامي وحين فرغت منها كان جالسا ما يزال

سالته : الا تفكر فى العودةالي بلدك ؟

قال : وين بلدى ؟ ده الحين فيه ثلاثة صومال • الحرب ما خلت ما عاد زرع ولاحيوان ، ما تقدر تدخل او تخرج ،البيت حقى اللى بنيته بعد عشر سنين هنا ما عادله اثر ليش ارجع ؟

قلت : طيب واذا الشركة استغنت عنك تعمل ايه ؟

مد نورين بوزه وحشر رقبته في صدره دون ان ينبس، شعرت وقتها بزهو ان يكون للانسان وطن ،بقعة من طين وحتة من سمايرجع لها حين تظلم الدنيا فى وجهه ويطرده الاخرون من جنتهم •

أخذت نفسا بملء صدرى واخرجته بقوة وانا اقول : الحمد الله • كان نورين مازال ينتظر قلت : سادخل لاكلم الشيخ حالا •

حين دخلت ، كان الشيخ يضع قدميه الحافيتين فوق المكتب و يشرب عصير برتقال .

بادرنى : ايش فيه؟

قلت : هذه هي الاوراق التى طلبتها ، مددت يدى بها و بدأت أحدثه فى موضوع نورين ، لم يدعنى اكمل وقال بلهجة حاسمة : الله يهديك ماتشغل بالك بامور لاتخصك ، ثم القى بالاوراق على جانب المكتب و هو يقول : الاوراق ماهى مضبوطة ، راجعها و أبغاها عندى بعد ساعة .

أعطاني قفاه و استمر فى تناول العصير و العبث فى قنوات الدش .

كان نورين ينتظرنى فى الخارج ، قرأ النتيجة على ملامحى .

بعد ساعة ، دخلت الى الشيخ حاملا الاوراق ذاتها دون أن أراجعها كما طلب .

قرأها و قال : زين زين ، أحسنت يا أستاذ .

(٧)

تعرفت على الدكتورة التى كانت تدرس لى مادة الاذاعة فى السنة الثالثة بالكلية من عينيها .

كانت تخفى وجهها و جسدها كله بزى النساء الاسود هناك ، لكن ما أن وقعت عينى عليها حتى عرفتها .

حين كنا طلابا كانت تعرفنا بالاسم و تسأل عن أحوالنا .

الان هى معارة هنا لمدة عامين ، كانت صدفة جميلة أن تقصد المطعم ذاتة الذى اعتدت أن أتغدى فيه فى المركز التجارى الضخم القريب من عملى .

حين فرغت أسرعت ناحيتها و قلت بلهجة مرحبة :

ازيك يادكتورة ، أنا تلميذك فى الكلية تخرجت منذ خمسة أعوام و أعمل هنا فى .

لم أكمل ، فقد انصرفت بسرعة دون حتى أن ترد السلام .

كان " المطوعون " يطوفون بالمكان ، و يلهبون بالسوط أى ذكر و أنثى يتحادثان .

خشيت أستاذتى — على ما يبدو — أن تضبط فى حالة تلبس .

(٨)

يريد زميلنا محمود القاضى أن ينهى تعاقده و يعود الى مصر ، لكن زوجته ترفض .

حجتها ، أن الاولاد يكبرون و احتياجاتهم تتزايد . . . " كما أننا تعودنا على مستوى معيشة معين لايمكن أن نتنازل عنه "

قالتها زوجة محمود بلهجة حاسمة ، كان محمود قد صحبنى معه لاقناعها فنحن زملاء دراسة وكنا أثناء الجامعة ،نتعجب من هذه العلاقة الرومانسية التى جمعتهما .

قالت هالة : نحن بالكاد اشترينا شقة على أطراف المعادى ، دفعنا فيها حصيلة السنوات الخمس ، كيف نؤثثها ، هل تتصور أننا يمكن أن نعود للاقامة فى الشقة اياها ، أتذكرها؟

قال محمود : أنت تبالغين لتغرسينا هنا ، لدينا ما يكفى لتأثيث شقة ، و لدى عملى و بوسعنا أن نعيش مستورين .

ردت بلهجة ساخرة : عملك ؟ لم يعد يكفينا ولا ضعف مرتبك ، الاولاد— كانت تخاطبنى الان— تعودوا أن ينزلوا السوبر ماركت فيشتروا ما يحلو لهم ، كيف أحرمهم مما ألفوا؟

قلت : بهذا المنطق لن تعودوا أبدا

قالت بسرعة : و ماله .

نظر الىّ وبدا مغلوبا على أمره .

ذهبت الى المطبخ وعادت حاملة صينية تحوى صنوفا شتى من الفاكهة و الحلوى .

حاولت أن أشرح لها كيف أن زوجها يعانى اضطرابات نفسية بسبب الغربة .

كنت فى مسعاى أذكرها بحبهما القديم وما واجهاه كى يتوجا حبهما بالزواج ، و كيف أنه من الضرورى أن يعودا كى يدرس الاولاد فى مصر ، وأن بامكانهما تدبير أمرهما اذا ماعادا .

كانت هالة مشغولة بتقشير المكسرات و تقطيع الحلوى .

قالت بلهجة شبه مقاطعة : لماذا لا تأكل ، ده تفاح أمريكاني و دى شيكولاته سويسرية وده موز بنمرة ، كل كل .

(٩)

جنس؟ هنا؟!

صحت بدهشة بريئة فى وجه صاحبى فقال :

هنا بامكانك أن تفعل أى شى ، غدا سترى بنفسك .

زرته فى اليوم التالى ، بعد لحظات جاءت سميرة — هكذا قدمت لى نفسها — من المطبخ بهدوم البيت .

قالت أنها من المنصورة و أنها تعمل ممرضة فى مستشفى خاص .

كانت بدينة نسبيا و بدا من حديثها مع صديقى أنهما معرفة قديمة .

غمز لها و أشار برأسه ناحيتى ، ثم قام ليعد الشيشة ، كان يحتفظ بلوازمها فى بيته ، فحم و معسل ومخزون من الحشيش يأتيه به بلدياته حين يفدون اليه فى طريقهم لاداء العمرة .

كانت سميرة تحادثنى بلغة مكشوفة ، جعلت وجهى يتلون و أنا أحاول أن أرسم ابتسامة لا معنى لها .

عاد صديقى بالشيشة و باغتنا : ايه النظام؟

قالت سميرة : صاحبك باين عليه خام ، ثم صاحت : يابنات تعالوا .

خرجت من الحجرة الداخلية بنتان تلبسان الثياب السوداء ذاتها ، قالت سميرة : ما تكشفى ياأختى أنت و هى .

بدت الفتاتان صغيرتان نسبيا ، عرفت المصرية منهما فورا ، أما الثانية فان لهجتها الخليجية أربكتنى قليلا و سرعان ما أعادتها سميرة الى لهجتها المنصورية .

بعد فاصل من أنفاس الشيشة المعمرة بالحشيش الوطنى ، كان بوسعى أن أرى

الفتاتين و قد تحللتا من سوادهما و اكتفيتا بقميصى نوم باللون الاحمر نفسه .

كانت سميرة تتولى تغيير حجر الشيشة و رص قطع الحشيش بمهارة و سرعة .

ناولتنى المبسم و هى تقرصنى من بطنى و تقول : مساء الفل .

ضحكت مع الجميع دونما سبب ، كان يدهشنى أننى أرتدى " السليب " فقط .

(١٠)

حين مات أبى لم يشأ أحد أن يخبرنى .

جاءنى الحاج جمال بلدياتى الذى يقيم هنا منذ عشرين سنة ، صحبنى فى سيارته وبدأ يحدثنى عن القضاء و القدر وأن الموت علينا حق ، ثم أوقف سيارته على الكورنيش و نزلنا ، كانت الرطوبة خانقة كالعادة ، و الكورنيش يشبه فتاه مرصعة بالحلى و مكسوة بالمساحيق ، لكنها مثل لوح ثلج بائس .

بعد فاصل من التلعثم قال لى الحاج جمال أن ابى مات .

بحثت كثيرا عن الدمع فلم أجده .

طلبت منه أن يعيدنى الى سكنى ، وحاولت من جديد أن أبكى فلم أستطع .

كنت أحبه كثيرا ، فكيف لا أبكى فقده؟

بعد شهرين عدت ، و حين صرت وسطهم بكيت بحرقة و أنا أسألهم : لماذا لم تخبرونى الا اليوم .



قال : ربما لأنها تحبنى إلى هذا الحد لم أعد أطيقها ، اقتربت منى إلى درجة غير محتملة ، تراقبنى فى كل حركة ، وتدللنى وتتحدث عنى كما لو كنت أعظم رجل فى الدنيا ، هذه مسألة تقتلنى ، تشعرنى بأنى محاصر مسجون فى حنايا قلبها ، موثق بأوردتها وشرايينها ، أريد أن أفك وثاقى وأفلت من الحصار .

أضاف وهو ينظر إلى السقف ويضغط على الحروف : فى ليالى باريس الطويلة أهرب منها وتظل تنتظر .

سحبت من أمامه دفتر الرسم ورحت أقلب أوراقه ، لم يرسم الأقصر التى أعرفها ، أربعون عاما بين رسومه وواقع الحال ، هكذا فى كل لوحة ، بيوت فقيرة ووجوه سمراء وأطفال يلعبون ، ابتسامات بريئة ونساء تحت ملاءات لا تكشف شيئا .

